دراسات في روائع الأدب المملوكي
(٢)

رائيّة جمال الدين التبريزي
في واقعة مرج الصفر



مقاربة تحليلية

تأليف
الدكتور نبيل محمد رشاد

Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

دراسات في روائع الأدب المملوكي

(٢)

رائية جمال الدين التبريزى

فى واقعة مرج الصُّفَّر

مقاربة تحليلية

تاليف

الدكتور نبيل محمد رشاد

أستاذ الدراسات الأدبية المساعد

كلية التربية – جامعة عين شمس

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

Editions Al-Adab 1923

42 Opera square - Cairo – Egypt

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

مكتبة الآداب

علي حسن

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رشاد، نبيل محمد.

رائية جمال الدين التبريزي المتوفي ٧٤٠هـ

في واقعة مرج الصغير: مقاربة تحليلية /

تأليف نبيل محمد رشاد.-

ط١.- القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١١.

١٠٤ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٦٨ ٣٤٠ ٠

١ - الشعر الحماسي

أ - العنوان

٨١١,٠٢٤

عنوان الكتاب: رائية جمال الدين التبريزى

تأليف: الدكتور نبيل محمد رشاد مصطفى

رقم الإيداع: ٩٨٣٣ لسنة ٢٠١١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 - 977 - 468 - 340 – 0

مكتبة الآداب

(علي حسن)

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) -

e-mail: adabook@hotmail. com

الإهداء

إلى أستاذيّ الجليلين . .

الأستاذ الدكتور **محمد يونس عبد العال**

والأستاذ الدكتور **مصطفى عبد الشافي الشورى**

شاكراً لهما حُسْنَ صنيعهما، راجيًا دوام ودّهما

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

القاضي جمال الدين أبو بكر عبد القاهر بن محمد التبريزي المتوفى ٧٤٠هـ، واحدٌ من مشاهير شعراء القرن الثامن الهجري الذين سقطت دواوينهم من يد الزمن، ولم يتبقَّ من آثارهم الفنية سوى عددٍ محدودٍ من المقطعات والأبيات المفردة التى احتفظ بها كتّاب التراجم من مثل ابن شاكر الكتبى فى كتابه: «فوات الوفيات»، والصلاح الصفدى فى كتابيه: «الوافى بالوفيات»، و «أعيان العصر، وأعوان النصر»، وابن حجر العسقلانى فى كتابه: «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة».

ولقد شاءت الأقدار أن تحتفظ لهذا الشاعر المجيد بقصيدة رائية طويلة يبلغ عدد أبياتها مائة وسبعة عشر بيتا قالها بمناسبة انتصار المصريين على التتريين فى موقعة مرج الصُّفَّر التى كانت فى العام الثانى من المائة السابعة للهجرة (٧٠٢هـ).

واحتفظ بنص هذه القصيدة كامِلا اثنان من كبار مؤرخى مصر المملوكية هما أبو بكر الدوادارىّ المتوفى ٧٣٢هـ فى كتابه: «كنز الدرر، وجامع الغرر»، وشهاب الدين النويري المتوفى٧٣٣هـ فى كتابه: «نهاية الأرب فى فنون الأدب».

ولقد قرأت القصيدة فوجدتها تقارب نظيراتها مما قاله شعراء العربية الكبار فى شعر الحماسة من مثل عينية لقيط بن يعمر الإيادي التي قالها في استنهاض همة قومه لرِّد عادية الفرس في العصر الجاهلي، وبائية أبى تمام التى قالها بعد انتصار

المعتصم فى وقعة عمورية، وميمية أبى الطيب المتنبى التى قالها فى موقعة «قلعة الحدث»، وامتداح سيف الدولة الحمدانى، ومن ثَمَّ رأيت أن أخصها ببحث مستقل.

ولما كان الشاعر مجهولاً غير معروف لتأخر زمنه، وندرة نتاجة الشعرى، وعدم تَيَسُّر المتاح منه بأيدى الدارسين، ولما كانت المعركة التى دار حولها موضوع النص مجهولة غير معروفة شأنها فى ذلك شأن العديد من المعارك التى خاضتها الدولة المملوكية الأولى بمصر والشام ضد التتريين وفلول الصليبيين، اتجه البحث نحو هذين الجانبين، فدرست شبكة الظروف أو مختلف العوامل السياسية والاجتماعية والعسكرية التى كانت بمثابة الدافع إلى إنشاء النص، وقد اقتضى البحث فى هذا الجانب العودةَ إلى المصادر التاريخية التى أرختْ لهذه الموقعة، وتحدثتْ عن تفاصيلها لمعرفة مجريات الأمور والأحداث والوقائع ومضاهاتها بما تحدَّث عنه الشاعر فى النص منها.

ثم تتبعت أصداء الرائية فى كتابات المؤرخين والنقاد فى هذه الحقبة، ولاحظت أنهم وصفوا شعر التبريزى بالعذوبة والانسجام، ولاحظت أن الصلاح الصفدى قد أشار إلى وقوع شاعرنا فى اللحن إذا نظم أو نثر، فأردت أن أتبين إلى أى مدى كان الصفدى محقًا فى اتهامه التبريزى بالوقوع فى اللحن فقمت بتتبع الشاعر فى قصيدته فوجدته قد وقع فى بعض عيوب القافية كالإقواء، وارتكب عددًا من الضرائر الشعرية بنوعيها الصرفى، والنحوى.

وقد دعانى التعرف على شخصية الشاعر الثقافية إلى دراسة ما وقع بالنص من تناص مع ما سبقه من ميراث العربية الدينى والأدبى، وأسفر البحث فى هذا الجانب عن تأكيد المقولة النقدية القديمة التى فحواها أن حرفة الإنسان لها أثرها

الذى لا يخفى على إبداعه الفنى، فالتبريزى كان فقيهًا شافعيًّا، وتولى القضاء غير مرة بمصر والشام، كما كان خطيبًا مفوَّهًا، يهز أعواد المنابر، ويستحوذ على ألباب مستمعيه ومشاعرهم، ومن ثَمَّ كان منطقيًّا بموجب مقولة أثر الحرفة أن تسيل ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته على لسانه، وأن تجرى نصوص الشعر العربى القديم على سنان قلمه فى هذا النص.

وفى النهاية أود أن أشير إلى أننى انتهجت نهجًا تكامليًّا فى دراسة النص حيث استفدت من معطيات المنهج التاريخى فى الجزء الخاص بالحديث عن شبكة الظروف، واعتمدت على المنهج الوصفى عند الحديث عما وقع فى القصيدة من اللحن، أما المنهج التحليلى فقد استخدمته فى كشف جوانب الجمال التى احتشدت بها الأبيات التى حللتها فى مبحث التناص والدلالة، والله الموفق، والهادى إلى سواء السبيل.

٤٣) المقتضب صنعه أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، [illegible] الشيخ [illegible]

٤٤) المصنوع من الشعر [illegible]

٤٥) موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور وتطوره [illegible] نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ.

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد ٢٢٦، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤٨) [illegible] تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الفصل الأول
نص الرائية
ضبط، وشرح، وتعليق

٤٢) [illegible]

٤٣) المقتضب صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق [illegible] الشيخ [illegible]

٤٤) الممنوع من الصرف [illegible] وقريبة للسابق [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible] الشعر عبر العصور [illegible] نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - [illegible]م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ - [illegible]م.

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد ٢٠٦، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤٨) همع الهوامع [illegible] وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١- اللهُ أَكْـــبَرُ جَــاءَ النَّـــصْرُ والظَّفَــرُ
والحَمْــدُ للهِ هــذا كُنْــتُ أَنْتَظِــرُ

٢- وَأَبْــرَزَ القَــدَرَ المحْتُــومَ بَارِئُــهُ
سُــبْحَانَهُ بِيَدَيْــهِ النَّفْــعُ والــضَّرَرُ

٣- وَهَوَّنَ الصَّعْبَ بالفَتْحِ المُبِيْنِ لَكُمْ
رَبٌّ يَهُــونُ عَلَيْــهِ المقْفَــلُ العَــسِرُ

٤- وَلَمْ تَــزَلْ شِرْعَــةُ الإِسْـلامِ ظَـاهِرَةً
أَجْزِمْ بِــهِ فبهــذا صُــحِّحَ الخَــبَرُ

٥- أَيْــنَ النُّجُــومُ وتَــأْثِيْرُ القــران ومــا
تَخَرَّصُــوا فيــه مِــنْ إِفْــكٍ ومــا زَجَــرُوا

٦- قَــدْ دبَّــرَ اللهُ أَمْــرًا غَــيْرَ أَمْــرِهِمُ
وَخَابَ ما زَخْرَفُوا[١] فِينَا وما هَجَرُوا[٢]

٧- وَأَقْبَــلَ العَــسْكَرُ المنــصورُ يَقْدُمُــهُ
مِــنَ الملائِــكِ جُنْــدٌ لَــيْسَ تَنْحَــصِرُ

٨-وَقَـدْ أَحَفُّـوا بـه والأَرْضِ مِـنْ زَجَـلٍ[٣]
تَــرْتَجُّ إِنْ سَــبَّحُوا اللهُ أَوْ ذَكَــرُوا

---

(١) زخرفوا: زيَّنوا، وموَّهوا.

(٢) هجروا: نعتوا، ووصفوا.

(٣) الزَّجَلُ بالتحريك: اللَّعِبُ، والجَلَبَةُ، والتَّطْرِيبُ. القاموس المحيط: ٣/ ٣٧٦.

٩- كِنَانَةُ اللهِ مَصْرٌ جُنْدُهَا ثَبَتَتْ
لا رَيْبَ فِيهِ وَجُنْدُ اللهِ تَنْتَصِرُ

١٠- ثَارُوا سِرَاعًا إلى إِدْرَاكِ ثَأْرِهِمُ
وَهُجِّرُوا[١] فى طِلابِ المجْدِ وابتكروا[٢]

١١- وَأَسْهَرُوا أعينًا فى اللهِ ما رقَدَتْ
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ إذَا نامَ الوَرَى سَهِرُوا

١٢- لِلهِ كَمْ دُيِّنُوا في نَصْرِ دِينِهِمُ
وَأَنْفَقُوا فى سَبِيْلِ اللهِ ما ادَّخَرُوا

١٣- صَانُوا الجيَادَ وسَنُّوا كُلَّ ذِى شُطُبٍ[٣]
وَجُدِّدَتْ لِلْقِسِيِّ النَّبْلُ والوَتَرُ

١٤- حَمَاهُمُ اللهُ كَمْ حَامُوا وَكَمْ مَنَعُوا
وَكَمْ أَغَاثُوا وَكَمْ آوَوْا وَكَمْ نَصَرُوا

١٥- وَخَلَّفُوا خَلْفَهُمْ لَذَّاتِ أَنْفُسِهِم
وَهَاجَرُوا وَلَذِيذَ العَيْشِ قَد هَجَرُوا

---

(١) هُجِّرُوا: أُمِرُوا بالمسير فى الهاجرة، أى فى منتصف النهار عند زوال الشمس إلى الظهر، أو عند زوالها إلى العصر. القاموس المحيط ٢/ ١٥٧.

(٢) ابتكروا: ساروا فى البكور.

(٣) شُطُبُ السيف بضم الشين والطاء أو بضم الشين وفتح الطاء: طرائقه التى فى متنه، واحدته شُطْبَةٌ وشُطَبَةٌ. وشِطْبَةُ. اللسان ٤/ ٢٢٦١.

١٦- وأَوْجَفُـوا[١] نَفَـرًا بالخَيْـلِ مُلْجَمَـةً
وبالرِّكَـابِ ومـا مَلُّـوا ولا فَـتَرُوا

١٧- حتَّـى أَتَـوا جِلِّقَـا[٢] في يـوْمِ مَلْحَمَـةٍ
فيـه الأُسُـودُ أُسُـودُ الغـابِ تَهْتَـصِرُ

١٨- لهـا الـسَّنَابِكُ في المَيْـدَانِ قَـدْ حُنِيَـتْ
صَـوَالجًا[٣] ولهـا روسُ العِـدَا أُكَـرُ[٤]

١٩- والجَـوُّ أَغْـبَرُ والتَّاتَـارُ زَاحِفَـةٌ
مِثْـلَ الجَـرَادِ عـلى الـدُّنْيا قـد انْتَـشَرُوا

٢٠- وَدِدْتُ لو كُنْتُ بـين الـصَّفِّ مُنْجَدِلًا[٥]
قـد ارْتَـوَتْ مـن دمـى الخَطِّيَّـةُ الـسُّمُرُ

٢١- وَكَـوْثَرُ الحَـرْبِ قـد راقَـتْ مَـشَارِبُهُ
تَحْـتَ العَجَاجَـةِ[٦] والأَبْطَـالُ تَعْتَكِـرُ[٧]

---

(١) أوجفوا: سيَّروا، إذ الوجيف ضربٌ من سير الإبل والخيل.

(٢) جِلِّق: اسم من أسماء دمشق.

(٣) الصوالج، والصوالجة: جمع صوجان وهو المِحَجن. راجع القاموس المحيط مادة صولجان في ١/ ١٩٥، ومادة حجن في ٤/ ٢٠٩.

(٤) الأكر: جمع أكرة، وهي لغة في الكرة. راجع السابق نفسه ١/ ٣٦٢، ونهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري ٣٢/ ٥٢ هامش رقم ٣.

(٥) منجدلًا: يقال: طعنه فَجَدَله أي رماه بالأرض فانجدل أي سقط. اللسان ١/ ٥٧٠.

(٦) العِجاجة: الإبل الكثيرة العظيمة. القاموس المحيط ١/ ١٩٧.

(٧) تعتكر: تختلط في الحرب. السابق نفسه ٢/ ٩٣.

٢٢- والسَّيْفُ يُنْشى بَدِيعًا مِن بَوَاتِرِهِ
والرُّمْحُ يَنْظِمُ والهاماتُ تَنْتَثِرُ

٢٣- والنَّبْلُ يَنْقُطُ[١] والأقلامُ كاتبةٌ
والضَّرْبُ يُعْرِبُ والأَبْدَانُ تَسْتَطِرُ[٢]

٢٤- حتَّى إذا عَبَّ مِثْلَ البَحْرِ جَحْفَلُنَا
وَمَدَّ فَيْضًا على أَعْدَائِنَا جُزِرُوا

٢٥- أَصْلَوْهُمُ جاحِمًا يَشْوِى الوُجُوهَ وَقَدْ
حَمِىَ الوَطِيْسُ ونارُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ

٢٦- وَأَحْرَقَتْهُمْ سِراعًا كُلُّ صَاعِقَةٍ
مِنَ السُّيُوفِ بِنِيرَانٍ لها شَرَرُ

٢٧- لاذُوا بِشُمِّ شَمَارِيخِ الجِبَالِ فَمَا
حَمَتْهُمُ قُلَلٌ[٣] منها ولا مُغَرُ[٤]

---

(١) فى نهاية الأرب: «يخقط» ولم نعثر لها على معنى، ومن ثمَّ آثرت رواية الدَّواداريّ فى كنز الدرر. راجع نهاية الأرب ٣٢/ ٥٢ وكنز الدرر ٩/ ٩٥ .

(٢) تستطر: تصطف كالسطر من الكتاب والشجر، والمقصود أنها تهوى على الأرض إلى حوار بعضها كأنها مسطورة أو مصفوفة.

(٣) قُلَلٌ: جمع قُلَّة وهى أعلى الجبل، القاموس المحيط ٤/ ٣٩- ٤٠.

(٤) مُغَرُ: فى كنز الدرر «صور»، وقال محقق نهاية الأرب: لعل الشاعر جمع مغارة على مغر، وأقترح أنها قد تكون «سُوَر» بضم السين، وفتح الواو على أنها جمع سور بضم السين وسكون الواو. راجع كنز الدرر ٩/ ٩٥، ونهاية الأرب ٣٢/ ٥٢ هامش رقم ٦، والقاموس المحيط ٢/ ٥٢.

٢٨- وَمُزِّقُـــوا شُرُدًا بَـــيْنَ الزِّحَـــامِ فَكَـــمْ
شِـلْوٍ[١] تَنَـــازَعَ فيـــه الـــذِّئْبُ والنَّمِـــرُ

٢٩- أيـــن المَفـــرُّ وَقَـــد حـــام الحِـــمَامُ بهـــم
هيهـــات لا مَلْجَـــأٌ يُرْجَـــى وَلاَ وَزَرُ[٢]

٣٠-نـــادى بهـــم صـــارِخٌ أَغْـــرَى الفَنَـــاءَ بهـــم
فَـــإِنْ سَـــأَلْتَ فـــلا خُـــبْرٌ ولا خَـــبَرُ[٣]

٣١-كَمْ قَدْ سَهِرْتُم دُجًى مِنْ خوفِهِمْ حَذَرًا
والآنَ نَـــامُوا فَـــلاَ خَـــوْفٌ وَلا حَـــذَرُ

٣٢- قولـــوا لِغـــازانَ يـــا ذا مـــا لعلَّـــكَ أنْ
تـــروعَ مـــن مخلـــبِ الرئبَـــالِ[٤] يـــا بَقَـــرُ

٣٣- تلـــك الجمـــوعُ التـــى وافى يُـــدِلُّ بهـــا
تـــالله مـــا بَلَغُـــوا سُـــؤْلاً ولا نُـــصِرُوا

٣٤- جاءوا وقَدْ حَفَـرُوا مِـنْ مكـرهم قُلُبًا[٥]
ألقـــاهُمْ الله قَـــسْرًا فى الـــذى حَفَـــرُوا

---

(١) الشِّلْوُ: الجسد من كلِّ شىء، وكلُّ مسلوخٍ أُكِلَ منه شىء وبقيت منه بقيَّة. القاموس المحيط ٤/ ٣٤٢.

(٢) الوزر: الجبل المنيع، وكلُّ معقلٍ، والملجأ، والمعتصَم. السابق ٢/ ١٥٢.

(٣) الخبر بضم الخاء وسكون الباء: العلم بالشىء، وبفتحها النبأ. السابق ٢/ ١٦.

(٤) الرئبال: الأسد والذئب. السابق ٣/ ٣٦٨.

(٥) القُلُبُ: جمع قليب، وهي البئر قبل أن تطوى، يعني قبل أن تبنى بالحجارة ونحوها.

٣٥- وسَـــكَّروا في أراضــــيها مُبـــاذرَةً
والآن قـد حَـصَدُوا أَضعافَ مـا بَـذَرُوا

٣٦- وابن بهـم أَجَـلٌ يمشي علـى مَهَـلٍ
حتَّـــى محَـاهُم فــلا عَــيْنٌ ولا أَثَــرُ

٣٧- لم يَنْفِـرُوا خِيفـةً مِــنْ كُــلِّ قَسْوَرَةٍ
وَفَـــرَّ جَمْعُهُـــمُ إلاَّ وَهُــمْ حُمُــرُ

٣٨-أَمُّـوا الفُـراتَ وَقَـدْ رامُـوا النَّجاة فَكَمْ
حَلَّـت بهـم عِــبَرٌ فيهــا ومــا اعْتَــبَرُوا

٣٩- مَرائِـرُ القَـوْمِ مِـنْ خَـوْفٍ قـد انفطَـرَتْ
والكُـلُّ مِـنْ قَبْـلِ عيـدِ الفِطْـرِ قـد نُحِـرُوا

٤٠- جمـيعُهُم قُتِلُـوا صَـبْرًا[١] وَأَعْظُمُهُـمْ
جميعُهـــا بِــضَوَاحِي جِلِّــقٍ صُــبِرُوا

٤١- لم يُقْــبَرُوا في نــواويسٍ ولا جُــدُثٍ
وإنَّــما في بطـونِ الـوحشِ قـد قُـبِرُوا

٤٢- والطَّــيْرُ تَرْعَــى نهـارًا لَحْمَهُـمُ فَـإذا
ما اللَّيْلُ جَـنَّ ففـي أَقْحَـافِهِم[٢] تَكِـرُ[٣]

---

(١) قُتلوا صبرا: الصبر هو نصب الإنسان للقتل، وكل من قُتِل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ، فإنه مقتول صبرا، اللسان ٤/ ٢٣٩١.

(٢) الأقحاف: جمع قِحْف، والقحف العظم الذي فوق الدماغ.

(٣) تكرا: تبيت، وتُعَشِّش.

٤٣- فَخَـذْ عَـزَاءَكَ فـيهم إِنَّهُـمْ أَمَـمُ
هُـمُ اللَّعَـاوِسُ[1] إن قَلُّـوا وَإِنْ كَثُـرُوا

٤٤- كَمْ كَابَرُوا الحِسَّ فى قَصْدِ الشَّآمِ وكَمْ
قـد جَرَّبُـوا حظَّهُـمْ بالـشَّام واختـبروا

٤٥- فَقَـاتِلُوهُمْ جَمِيعًـا إنهـم تَـتَرٌ
كم أرسلوا رُسْلَهُمْ تَـتْرَى وَكَـمْ مَكَـرُوا

٤٦- هُبُّوا إلى سِيسَ مِنْ أَحْلامِ رَقْدَتِكُمْ
وسـارِعوا فى طِـلابِ الثـأْرِ وابْتَـدِرُوا

٤٧- بِكُـلِّ غَـيْرَانَ أَخْـذُ الـرُّوحِ هِمَّتُـهُ
فى غَـيْرِ نفـس المُـرَدَّى مـا لَـهُ وَطَـرُ

٤٨- أَيَرْقُـدُ اللَّيـلُ فى أَمْـنٍ وفى دَعَـةٍ
عَـنْ كَيْـدِ قَـوْمٍ لهـم فى شـأنِكُمْ سَـهَرُ

٤٩- إنْ تَتْرُكُـوهُم فَـإِنَّ القَـوْمَ مـا تركـوا
يومًـا عليـكم ولا أَبْقَـوا ولم يَـذَرُوا

٥٠- أمـا رأيـتمْ وعـايَنْتُمْ وقـد فعَلُـوا
فى الـصالحِيَّة مـا لا تَفْعَـلُ التَّـتَرُ

٥١- اشـفوا صُـدُورَكُمْ إنْ كُنْـتُمُ غُـيُرًا
عـلى نـسائِكُمُ يـا قـومُ وادَّكِـرُوا

---

(١) اللعاوس: جمع لعوس، وهو الأكول الحريص الشَّرِهُ. ومنه الذئاب اللعاوس.

٥٢- كَمْ مِنْ عجوزٍ ومن شيخٍ ومُكْتَهِلٍ[١]
ومن فتاةٍ نماها الحُسْنُ والخَفَرُ

٥٣- بَيْضاءَ خُرْعُوبَةٍ[٢] بِكْرٍ مَحَجَّبَةٍ
لا الشَّمْسُ تَنْظُرُها صونًا ولا القَمَرُ

٥٤- وذاتِ بَعْلٍ مُخَبَّأةٍ مُخَدَّرَةٍ
من دونها تُضْرَبُ الأستارُ قد أَسَرُوا

٥٥- ومُطْفِلٍ أَثْكَلُوا وَجْدًا بواحِدِها
وحامِلٍ أُجْهِضَتْ خَوْفًا وقد ذُكِرُوا

٥٦- ومَرْبَعٍ أَقْفَرُوا مِنْ بَعْدِ ساكِنِهِ
وعِقْدِ شَمْلٍ نظيمٍ جامعٍ نثروا

٥٧- وكم أراقوا وكم ساقُوا وكم هَتَكُوا
وكم تَمَلَّوا[٣] بما نالوا وكم فَجَرُوا

٥٨- وحرَّقوا فى نواحيها فَوَا حربا
وخَرَّبوا الشَّامِخَ العالى وكم دَثَرُوا

---

(١) المكتهل من الرجال: الذي جاوز الثلاثين، ووخطه المشيبُ.

(٢) خرعوبة: أصل الخرعوب: الغصن لِسَنَتِه، وقيل: هو القضيب السامق الغض، وامرأة خرعَبةٌ وخُرْعُوبة: رقيقة العظم كثيرة اللحم، ناعمة كأنها خرعوبة من خراعيب الأغصان، من بنات سنتها.

(٣) تملّوا بما نالوا: تمتعوا به.

٥٩- وجـامِعُ التوبَـةِ المحـروقُ مهجتُـهُ
يُـشِيْرُ لا توبـة للقـومِ إنْ ظَفَـرُوا

٦٠- إشـارةٌ تَـتَرَكُ الأنفـاسَ صـاعدةً
لهـا الـدموعُ مـن الآمـاقِ تنحـدِرُ

٦١- لهـم حزائـز فى قلبـى مُخَبَّـأَةٌ
تكـادُ مِـنَ حَرِّهـا الأكبـادُ تَنْفَطِـرُ

٦٢- فـما يُثَـبِّطُكُم عَـنْ أَخْـذِ ثَـأرِكُمُ
هبُّـوا سراعًـا وخـافوا اللَّـومَ يـا غُـيَرُ(١)

٦٣- وَفُّـوهُمُ الحـربَ إنـصافًا ومعدلـةً
وحَـرِّرُوا نُـوَبَ الأَيَّـامِ واعتـبروا

٦٤- لا يَظلِمَـنْ بَعْـضُكُم بعـضًا بخردلـةٍ
ولا يَـدَعْ عِنْـدَهُ حقًّـا ولا يَـذَرُ

٦٥- وسـارعوا واقتُلُـوهم إنَّهُـمْ قَتَلُـوا
وبـادِرُوا وأسِرُوهـم مـثلما أَسَرُوا

٦٦- جوسـوا دِيَـارَهُمْ واسْـبوا حَـرِيمهَمُ
وَأَوْقِروا(٢) ضِعْفَ ما أَوْعَوْا(٣) ومَا وَقَـرُوا(٤)

---

(١) غُيَرُ: جمع غيور، وهو فعولٌ من الغَيْرَة وهي الحَمِيَّةُ والأنفة.

(٢) أوقروا: أي احملوا على بغالكم وحميركم من أموالهم وثرواتهم.

(٣) ضعف ما أوعوا: أصل الإيعاء: الجمعُ والمقصود ضعف ما جمعوا، ونهبوا، وسرقوا من أموالكم، وثرواتكم، وخيرات بلادكم.

(٤) وقروا: جمعوا.

٦٧- سَجْلاً بِسَجْلٍ فإنَّ الدَّهْرَ ذو نُوَبٍ
مَنْ ذا يُغالِبُ ما يأتى به القَدَرُ

٦٨- بزُّوهُمُ الملكَ قَهْرًا عن جوارِكُمُ
وخَرِّبوا كُلَّ ما شادُوا وما عَمَرُوا

٦٩- فما يُفكِّرُ فى أدْبارِ عاقِبَةٍ
وَيَحْزِمُ الأَمْرَ إلاَّ مَنْ لَهُ نَظَرُ

٧٠- ولا يعافُ شَرابَ الذُّلِّ عن ظَمَأٍ
ويُومِقُ العِزَّ إلاَّ مَنْ لَهُ خَطَرُ

٧١- فمهِّدوا بالظُّبا مجرى سوابِقِكُم
ما يرفعُ الذِّكْرَ إلاَّ الصَّارِمُ الذَّكَرُ

٧٢- وخلِّدوا فى المعالى ما نُعَنْعِنُهُ[1]
عنكم وتُرْوَى به الأخبارُ والسِّيَرُ

٧٣- فكلُّ ذَنْبٍ جَناهُ الدَّهْرُ معتمِدًا
فى جَنْبِ ما أَبْقَتِ الأيَّامُ مُغْتَفَرُ

٧٤- يا أَهْلَ جِلِّقَ أمنًا فى مساكِنِكُمْ
وعاملوا اللهَ رَبَّ العرشِ وانزجروا

٧٥- صوموا وصَلُّوا وزكُّوا وارحموا وصِلُوا
وابغوا النَّجاة وحجُّوا البيتَ واعتمروا

---

(١) العنعنة: الرواية بالإسناد.

٧٦- ذروا التكاثُرَ فالدنيا لمن زُوِيَتْ[1]
في جَنْبِ ما وَعَدَ الرحمنُ تُحْتَقَرُ

٧٧- فالوقتُ أَقْرَبُ والأنفاسُ سائرةٌ
والعُمْرُ مَنْصَرِمٌ والمرءُ مُحْتَضِرُ

٧٨- ولا تخافوا من التاتارِ مَجْلَبَةً
مِنْ بَعْدِ ما ارتفع التدليسُ والغَرَرُ

٧٩- لم يطلبوا جِلِّقًا بَغْيًا بِظُلْمِهِمُ
إلا ورُدُّوا على الأَعْقَابِ وانكسروا

٨٠- حاشا دِمَشْقَ مِنَ الأسواءِ تَطْرُقُها
أَوْ أَنْ تُغَيِّرَها عن وصفها الغِيَرُ

٨١- ملائِكُ الله تحميها وتَحْرُسُهَا
تَعَاقُبًا ولها من ربِّها خَفَرُ

٨٢- وفي جوارِ خليلِ الله ما بَرِحَتْ
وحضرة القدس قل لي كيف تُحْتَقَرُ

٨٣- بالله عَدْوِى على مَنْ رامها بأذًى
وبالخليفةِ والسُّلطانِ أَنْتَصِرُ

٨٤- هما ملاذُكُمُ في كُلِّ نائِبَةٍ
بالرُّوحِ أفديهما والسمع والبصرُ

---

(١) زُوِيَتْ: جُمِعَتْ.

٨٥- إذا تأمَّلْتَ فحوى سِرِّ حُكْمِهِما
لم تَدْرِ أيُّهما فى عَدْلِهِ عُمَرُ

٨٦- وَلو رأيتَهُما يومًا لخالكَ أن
موسى بن عمران قد وافاك والخضرُ

٨٧- هما رضيعا لبانٍ عِفَّةٍ وتُقًى
وحُسْنَ ذكرٍ شذاه فائحٌ عَطِرُ

٨٨- فذا مليكٌ لَكَمْ طابت أرومَتُهُ
وذا أميرٌ بأمرِ الله يَأْتَمِرُ

٨٩- أبو الرَّبيع سُلَيْمانُ الذى شَهِدَتْ
بفضلِهِ المستفاضِ البدوُ والحَضَرُ

٩٠- وزمزمٌ والصَّفا والمأزِمَانِ(١) معًا
والبيتُ يَعْرِفُهُ والحِجْرُ والحَجَرُ(٢)

٩١- خَلِيْفَةُ الله فى الدنيا وطاعَتُهُ
فرضٌ عليكم وهذا القولُ مُخْتَصَرُ

٩٢- مازال مُسْتَكْفِيًا بالله معتصمًا
مستنصِرًا مستعِينًا وهو مُنْتَصِرُ

---

(١) المأزمان: اسم للموضع الذى بين المشعر الحرام وعرفه. اللسان ١/ ٧٤.

(٢) الحِجْرُ: حجرُ الكعبة، وهو اسم الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربى، والحَجَرُ: الحَجَرُ الأسود وقد أُفرد إعظامًا له. اللسان ٢/ ٨٧١، ٧٨٤.

٩٣- لـولاه فى الأرض قـد مـادت جوانبُهـا
ومـا سـقاها إذًا غيـثٌ ولا مطَـرُ

٩٤- خليفـةٌ مِـن بنـى العبَّـاسِ باقيـةٌ
بـه إلى الله نَسْتَـسْقِى فَنُمْتَطِـرُ

٩٥- ضـاهَتْ يـداه عهـادَ الغَيْثِ فانْهَمَلَتْ
والغيـثُ مُنْـدَفِقُ الـشُّؤبُوبِ مَنْهَمِـرُ

٩٦- لـو مَسَّ عـودًا يَبِيْسًا بَطْنُ راحَتِـهِ
أعـاده وَهْـوَ رَطْـبٌ يـانِعٌ خَـضِرُ

٩٧- مـاذا أقـولُ بمدحِيـهِ وَقَـدْ تُلِيَـتْ
فى مـدح آبائـه الآيـاتُ والـسُّوَرُ

٩٨- جـاءَتْ بِنَعْـتِهِمُ التـوراةُ مُعْرِبَـةً
وَمُحْكَـمُ الـذِّكْرِ والإنجِيـلُ والزُّبُـرُ

٩٩- بـه إلى الله ضِـجُّوا فى حـوائِجِكُمْ
وبعـده بالمليـكِ النَّـاصِرِ انتـصروا

١٠٠- مَلْكٌ أُعِيدَ به عَصْرُ الشَّبَابِ لكم
مـسترغِدًا صـافيًا واسـتُؤنِفَ العمـرُ

١٠١- تـرى الملـوكَ صـفوفًا حولـه زُمُـرًا
مِـن فـرط هيبتـه لا يرجـعُ البـصرُ

١٠٢- تَـذِلُّ أعنـاقُهُم صَـغْرَى لِطَاعَتِـهِ
ولـيس يعـصونه أمـرًا إذا أُمِـرُوا

١٠٣- صونوا جيادَكُمُ اللَّاتى بكم لَجِبَتْ [١]
فى بـارِقِ الحـربِ والرَّمْـضاءُ تَـستَعِرُ

١٠٤- إنَّـا لنرجـوه مِـن بغـدادَ يُنْهِلُهـا
بـماءِ دِجْلَـةَ يرويهـا فتـصطدِرُ [٢]

١٠٥- وَيَجْمَعُ الشَّمْلَ فى دارِ السَّلامِ بِمَنْ
يَوَدُّهـا ويـؤدُّون الـذى نَـذَرُوا

١٠٦- يَؤُمُّهـا وإمـامَ المسلمين معًـا
ثقـوا بقـولى فهـذا منـه مُنْتَظَـرُ

١٠٧- فالشَّام وافـاه مَـعْ بَغْـدَادَ فى قرنٍ
ومـصرُ فى مُلْكِـهِ والـبرُّ والبحـرُ

١٠٨- والعُرْبُ والعُجْمُ فى ميمـون قَبْضَتِهِ
ومِـن سُطَى بَأْسِـهِ قـد حـارتْ التَّتَرُ

١٠٩- تَنشَّروا فى الفلا سُودَ الوجوه وقـد
طـوى بأبيـضه البتَّـار مـا نَـشَرُوا

---

(١) لَجِبَتْ: جاء فى اللسان «اللجب: الصوت، والصياح، والجلبة، تقول لجب، بالكسر» اللسان ٥ / ٣٩٩٨.

(٢) تصطدر: افتعال من الصدور، وهو الرجوع عن المكان المورود.

١١٠- قـدامَ للـدِّين والـدُّنْيَا يَـسُوسُهُمَا

فَكُـنَّ فيـه لـه حِـرْزٌ ومـستَتَرُ

١١٢- عـلى الـدَّوام ولا زالـتْ مدائِحُـهُ

تُفْـشَى وغـرُّ القـوافى فيـه تُبْتكَـرُ

١١٣- وافـاكُمُ بِعَزْيـزِ النَّـصْرِ فى نَفَـرٍ

وقـاهُمُ اللهُ مـا أوفـاهُمُ نَفَـرُ

١١٤- قـد أيقنـوا أَنَّهـم جـادُوا بأنفُسِهِم

من أجل ذا ظَهَرَ الإسلامُ مُذْ ظَهَرُوا

١١٥- كـم فَرَّجُـوا مأزقًـا ضَنْكًا بمعـتَرَكٍ

وكابـدوا فى مجـالِ المـوتِ واصـطبرُوا

١١٦- فَبَـيَّضَ اللهُ مـنهم أَوْجُهًـا كَرُمَـتْ

فـإنَّهم بالأيـادى البِيضِ قـد غَمَـرُوا

١١٧- وحـاطهم أيـن مـا كـانوا ولا بَرِحُـوا

فى ذِمَّـةِ اللهِ إنْ غـابوا وَإِنْ حَـضَرُوا

٤٣) المقتضب صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق [illegible] الشيخ [illegible]

٤٤) [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible] الشعر عبر العصور [illegible]
نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ - [illegible]

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد ٢٢٦، [illegible] ١٩٩٦م.

٤٨) نقد الشعر [illegible] تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الفصل الثاني
المبدع والمتلقي وشبكة الظروف

٤٢) [illegible]

٤٣) المقتضب صنعه أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق [illegible] الشيخ

٤٤) الممنوع من الصرف [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible]
نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة،
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف
بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية،
القاهرة، ١٣٥٨هـ [illegible]

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود
عبد الكريم، الهيئة المصرية [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد
٢٢٦، مصر، ١٩٩٦م.

٤٨) [illegible] وتعليق الدكتور محمد عبد
المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، [illegible]

أحب أن أشير – بادئ ذى بدء – إلى ما أعتقد من أن القصيدة الشعرية – أية قصيدة شعرية– «ليست مجرد حقيقة أدبية، ولكنها حقيقة اجتماعية أيضا، أى إن القصيدة تُنْتَجُ فى سياق يتضمن حياة المؤلف، والمتلقى الذى يُكتب (أو تكتب) له، وعلاقات مختلف العوامل الاجتماعية، والتاريخية، والسياسية التى تمثل الخلفية، ومن ثمَّ تقع القصيدة فى شبكة الظروف حين ينتجها الشاعر، وحين يتلقاها القارئ»(١).

وانطلاقًا من هذا الموقف تجدر الإشارة إلى أنّ تاريخ هذا النص يعود إلى أوائل القرن الثامن الهجرى؛ إذ أنشأه صاحبه القاضى جمال الدين أبو بكر عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد التبريزى الشافعى سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة (٧٠٢ هـ) غِبَّ انتصار المصريين على التتريين فى واقعة شقحب(٢) أو مرج الصُّفَّر(٣) فى عهد ثالث خلفاء بنى العباس بالديار المصرية المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد الذى ينتهى نسبه إلى الراشد بالله أبى جعفر المنصور الخليفة الثلاثين من خلفاء بنى العباس بالعراق(٤).

---

(١) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ديفيد بشنبدر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، ص ١٢١، القاهرة، هيئة الكتاب ١٩٩٦م.

(٢) جاء بهامش النجوم الزاهرة: «قرية فى الشمال الغربى من غباغب، ويقال لها تل شقحب ذكرها دسود فى الكلام عن وادى العجم من ضواحى دمشق». النجوم الزاهرة لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ٨/ ١٥٩ هامش رقم ٣.

(٣) جاء بهامش نهاية الأرب للنويرى «ضبطها محقق السلوك ١ : ٦٠ بتشديد الصاد وضمها، وفتح الفاء، وهو أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق». نهاية الأرب ٣٢/ ٢٨ هامش رقم٤.

(٤) مآثر الإنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ٢/ ١٣٢ وما بعدها الكويت ١٩٦٤م.

وكان الذى جيَّش الجيوش وقادها إلى هذه الواقعة هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون تاسع سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر والشام وذلك فى زمن سلطنته الثانية[(١)].

وقد ذكر خبر هذه الواقعة بالتفصيل كلٌّ من أبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى المتوفى سنة ٧٣٢هـ فى الجزء التاسع من كتابه «كنز الدرر، وجامع الغرر»، وهو الجزء الذى قصره على ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأسماه «الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر»[(٢)]، وشهاب الدين النويرى المتوفى ٧٣٣هـ فى كتابه «نهاية الأرب فى فنون الأدب»[(٣)]، وجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى ٨٧٤ هـ فى كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»[(٤)]، وابن إياس الحنفى المتوفى ٩٣٠هـ فى القسم الأول من الجزء الأول من كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»[(٥)].

وتشير كتب هؤلاء المؤرخين وتسجيلاتهم لأحداث الواقعة وما سبقها من مقدمات إلى مجموعة الأسباب التى دفعت الناصر محمد بن قلاوون إلى لقاء

---

(١) تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة ثلاث مرات: الأولى ٦٩٣هـ ومكث فيها أحد عشر شهرا، والثانية كانت عام ٦٩٨هـ ومكث فيها عشر سنين إلى عام ٧٠٨هـ، والثالثة كانت عام ٧٠٩هـ وظل بها إلى أن وافته المنية ٧٤١هـ. راجع التحفة المِسْكِيَّة فى الدولة التركية لابن دقماق ص ٩٤ وما بعدها.

(٢) ينظر الكتاب المذكور من صفحة ٨٢ إلى صفحة ١٠٠.

(٣) ينظر الكتاب المذكور المجلد رقم ٣٢ من صفحة ٢٦ إلى صفحة ٥٨.

(٤) ينظر الكتاب المذكور المجلد الثامن من صفحة ١١٧ إلى صفحة ١٦٩.

(٥) ينظر الكتاب المذكور الجزء الأول القسم الأول من صفحة ٤١٢ - ٤١٦.

التتار فى هذه المعركة، وتصميمه على دحرهم بما أعدَّ لهم من عددٍ وعدَّة، وأول هذه الأسباب ما أعلنه من رغبته فى نصرة الدين الحنيف، ونجدة أهل البلاد الشامية الذين أذهلهم الفَرَقُ من أنباء توجُّهِ التتار إليهم.

وهنا يجب أن نقف وقفة لنُبيِّنَ أنَّ المصادر التاريخية قد أشارت إلى أنّ ملك التتار فى ذلك الوقت كان قد أسلم، وسمى نفسه باسم «غازان محمود» وأرسل وفدًا إلى الناصر محمد بن قلاوون يترأسهم قاضى الموصل كمال الدين الشافعى[1]، وكان مع الوفد كتاب يعرض فيه القائد التترى الصلح على السلطان المملوكى، إلا أن الناصر محمدًا قد توجس خيفةً من صنيع الغازان محمود، وخشى أن يكون إظهار إسلامه مكيدة للإيقاع بالمماليك، وأراد السلطان أن يحتاط لنفسه وفهم قاضى الموصل - وكان على ما يبدو ورعًا تقيًّا[2] - ما يدور بخلد السلطان فذكر له ولحاشيته «أنه ما يعلم من غازان وخواصه غير الصلح، وحقن الدماء، ورواح التجار ومجيئهم، وإصلاح الرعية»[3] ثم أشار عليهم بما رواه عنه ابن تغرى بردى حيث قال «ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تَتَّفِقُون وتَبْقَوْنَ على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة فى كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها، فتخرجون على عادتكم، فإن كان

---

(١) النجوم الزاهرة: ٨/ ١٣٥.

(٢) أثنى الناصر محمد فى رسالته التى بعثها إلى القائد التترى على القاضى الموصلى بقوله: «ونحن نعلم علمه ونُسُكَهُ ودينه وفضله المشهور، وزهده فى دار الغرور، ولكن قاضى القضاة غريب عنكم، بعيد منكم، لم يطَّلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خَفِيُّ مستوركم». النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٥.

(٣) النجوم الزاهرة: ٨/ ١٣٩.

هذا الأمر خديعةً فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحًا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح، وتحقن الدماء فيما بينكم»[١].

ويبدو أنَّ ما أشار به القاضى الموصلى على السلطان المملوكى ورجال حاشيته قد وقع منهم موقعًا عظيمًا، وآية ذلك أنهم أكرموه هو والذين أُرْسِلوا معه[٢]، وردوهم إلى القائد التترى بخطاب يطلب فيه الناصر محمد أن يرسل الغازان إليه برجل من خواص دولته يكون ممن إذا قطع بأمرٍ وقف المغول عنده، وذلك للتشاور معه فيما يجب أن تكون عليه الأمور من الصلح[٣].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن القائد التترى لم يُجب الناصر محمدًا إلى ما طلب، وعزم على الركوب وقصد الشام، مما حدا بالناصر محمد إلى الاستعداد له وترقب تحركاته.

هذا هو السبب الأول أو الرئيسى فى وقوع هذه المعركة كما نصّت عليه كتابات المؤرخين التى سبقت الإشارة إليها، إلا أننى أتصور أنه إلى جوار هذا السبب الأساسى كانت هناك مجموعة أخرى من الأهداف أو الغايات التى حركت الناصر محمدًا ودفعته إلى ملاقاة التتار فى مرج الصُّفَّر.

وتأتى فى مقدمة هذه الأهداف أو الغايات رغبة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى توسيع مملكته، وتوطيد دعائمها، وإظهار قوتها وشدة بأسها، وإرهاب خصومها، والثأر لنفسه وجيشه من جيش التتار وقائده غازان الذى

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه: ٨ / ١٤٢.

(٣) السابق نفسه: ٨/ ١٤٦.

ركبه الغرور بعد إنزاله هزيمة ساحقة بالجيش المملوكى عند وادى الخازندار فى ربيع الأول من عام تسعة وتسعين وستمائة من الهجرة[(١)].

على أن هناك سببًا آخر من أسباب هذه المعركة تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام، وهو أن الناصر محمدًا أراد أن يثأر لنفسه، ولأخيه الأشرف خليل من جيش المغول كله، ذلك أن الأشرف خليل كان قد مات مقتولاً عام ٦٩٣هـ على يد حسام الدين لاجين المنصورى، ثم إنّ هذا القاتل كان قد اختبأ عن الناصر محمد فى مئذنة مسجد أحمد بن طولون، وكان ذلك بإيعاز من مدبر المملكة المصرية آنذاك زين الدين كتبغا المنصورى، وما إن خرج حسام الدين من مخبئه بعد أن هدأت الأمور حتى ثارت مماليك الأشرف خليل، وخرجت تطالب بالقصاص من قاتله، فما كان من زين الدين كتبغا إلا أن ألقى القبض عليهم ونكل بهم، ثم أخذ حسام الدين لاجين يُخَوِّفُ صاحبه كتبغا من الناصر محمد إذا كبر وترعرع حيث قال له: «متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتة، ولا يُبقى أحدًا ممن تعامل على قتل أخيه الأشرف... والمصلحة خلعه وسلطنتك»[(٢)].

ويشير المؤرخون إلى أن كتبغا لم يُلق بالاً - فى أول الأمر - إلى كلام لاجين، ثم مازال لاجين به إلى أن قام بطلب «الخليفة والقضاة والأمراء، وتكلم معهم فى عدم أهلية الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه، وأن الأمور لا بُدَّ لها من رجلٍ

---

(١) يراجع فى واقعة وادى الخازندار، وهزيمة جيش الناصر محمد فيها: نهاية الأرب للنويرى ٣١/ ٣٨٥ وما بعدها، وكنز الدرر للدَّوادارى ٩/ ١٥ وما بعدها، والغزو المغولى أحداث وأشعار، لمأمون فريزجرار، ص ١٣٥ وما بعدها.

(٢) النجوم الزاهرة: ٨/ ٤٩.

كاملٍ تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه»[١]. واستجاب الخليفة والقضاة والأمراء لطلب كتبغا «وخُلِعَ الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا، وجلس على تخت الملك»[٢].

وكل هذه الجرائم التى ارتكبها زين الدين كتبغا بدءًا من الإشراف على قتل الأشرف خليل، ومرورًا بإخفاء القاتل، والتنكيل بمن طالبوا بالقصاص منه، والسعى فى عزل الناصر محمد عن السلطنة، كل هذه الجرائم قد أوغرت صدر الناصر محمد وملأته غيظًا وحقدًا ورغبةً فى التشفى والانتقام لا من كتبغا وحده، وإنما من جنسه كله؛ إذ كان «أصله من التتار مِن سَبْى وقعة حمص الأولى التى كانت فى سنة تسع وخمسين وستمائة (٦٥٩ هـ) فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم أعتقه، وجعله من جملة مماليكه، ورقّاه حتى صار من أكابر أمرائه»[٣].

كانت هذه هى شبكة الظروف المعقدة التى دفعت السلطان الناصر محمد ابن قلاوون إلى التحفز للاشتباك مع التترين متى سنحت الفرصة لذلك، وحين وردت الأنباء من حلب فى مطلع العام الثانى من القرن الثامن الهجرى إلى السلطان بعزم قازان على التحرك إلى بلاد الشام خرج الجيش المصرى لملاقاته، وكان عدده ثلاثة آلاف جندى، وكان ذلك فى شهر رجب من عام ٧٠٢هـ، وفى أثناء سير الجيش المصرى إلى بلاد الشام علموا بنزول قازان على الفرات، ووصول عساكره إلى الرحبة، وأنه بعث بثمانين ألف مقاتل إلى الشام يتقدمهم

(١) النجوم الزاهرة: ٨/ ٤٩.

(٢) السابق نفسه ٨ / ٤٩.

(٣)السابق نفسه ٨/ ٥٥.

أحد أصحابه وهو قطلوشاه، وأنه كتب إلى نائب الشام عز الدين أيبك الأفرم يستميله، ويرغبه فى الإذعان له ولجيشه، وأن الفزع من التتار كان قد استولى على الناس فى حلب وحماه، ودفعهم إلى الخروج من ديارهم، والفرار إلى دمشق التى ما لبث أهلها أن استحوذ عليهم الفرق مما سمعوه من إخوانهم الحلبيين والحمويين عن بطش التتار، وفتكهم بأعدائهم، ونهبهم الأموال والثروات والخيرات التى يجدونها فيما يستولون عليه من البلدان، وقتلهم الشيوخ والأطفال والعجائز، وهتكهم الأعراض وفعلهم المنكرات، كل هذا الذى سمعه الدمشقيون جعلهم يفكرون فى ترك مدينتهم، والهروب منها، قال ابن تغرى بردى: «فاستعد أهلُ دمشق للفرار، ولم يبق إلا خروجهم، فنودى بدمشق: مَن خرج منها حلَّ ماله ودمه»[1]، واللافت – هاهنا- أن صاحب النجوم الزاهرة لم يعيِّن الذى قام بالمناداة أو أمر بها[2]، وكان لابد والموقف هكذا أن يتحرك فيلق من جيش الشام لدحر التتريين قبل أن يصلوا إلى دمشق، وتحرك الجيش الشامى إلى حماه، وسار جيش المغول للقائه، والتقى الجيشان الشامى والمغولى عند بلدة تعرف بالقريتين، واستطاع جيش المغول أن يكبد الجيش الشامى خسائر فادحة، وواصل التتار زحفهم حتى وصلوا إلى قرية اسمها «عرض»، وعندها وجدوا أنفسهم فى مواجهة جيش مقداره ألف وخمسمائة فارس، ودار القتال بين الفريقين، وانكسر التتار فى هذه الجولة، وعندما وجد قطلوشاه أن جيش صاحبه الغازان محمود قد تعرض لما تعرض له فى عرض،

---

(١) النجوم الزاهرة: ٨/ ١٥٧.

(٢) تشير رواية اليونيني إلى دور الإمام ابن تيمية في هذه الموقعة تُنْظَر هذه الرواية في الروض الزاهر بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ص ١٠١ وما بعدها.

جدَّ هو فى السير إلى مشق، والتقى الجيشان مرة ثانية عند شقحب، أو فى مرج الصُّفَّر، بعد أن انضم الجيش المصرى بقيادة الناصر محمد بن قلاوون إلى جيش الشام، وكان الناصر محمد، والخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وأمراء المماليك يقفون فى القلب، وكانت ميمنة الجيش تتكون من عساكر حماة، وكانت ميسرته تتكون من عساكر حلب وصفد، ودارت رحى الحرب، واستطاع الجيش المغولى أن ينال من ميمنة الجيش المملوكى فى أول الأمر إلى أن أدركها كلٌّ من القلب والميسرة، واستمر القتال بين الجيشين من ظهر يوم السبت الثانى من شهر رمضان المبارك من عام ٧٠٢هـ إلى عصر يوم الاثنين رابع أيام الشهر الفضيل حينئذ، حتى تمَّ للجيش المملوكى النصر.

ولقد أشاد المؤرخون باستبسال المماليك وتصميمهم على دحر عدوهم وإحراز النصر؛ يقول ابن تغرى بردى: «وألحت المماليك السلطانية فى القتال، وأظهروا فى ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف»[1]، ويصف فرحة السلطان والعامة بالنصر فيقول: «وبات السلطان ليلته وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها فى عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامة، والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجون بالدعاء والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنة، وتساقطت عبرات الناس فرحًا، ودُقَّتْ البشائر بسائر الممالك، وكان هذا اليوم يومًا لم يُشَاهَد مثله»[2].

ويتحدث الصفدى عن هذه المعركة فيقول: «والذى أعتقده أنه من حين

---

(١) النجوم الزاهرة: ٨/ ١٦٢.

(٢) السابق نفسه: ٨/ ١٦٣.

ظهر جنكيز خان ما جرى للمغول بعد واقعة عين جالوت، ولا إلى يومنا مثل واقعة شقحب، كادت تأتى على نوعهم فناءً، فإن الموت أهَّل بهم ورحَّب، وما نجا منهم إلا مَنْ حصَّنه الأجل، أو اختار الأسر لما وجد من الوجل[(١)]».

ويرى ابن حجر العسقلانى أن هذا النصر الذى أحرزه الناصر محمد بن قلاوون على التتار فى شقحب كان سببًا من أسباب استقرار ملكه يقول: «لم ير أحدٌ مثل سعادة ملكه، وعدم حركة الأعادى عليه برًّا وبحرًا، مع طول المدة، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد[(٢)]».

وما أشار إليه ابن حجر العسقلانى من استتباب الأمر للناصر محمد بن قلاوون، وعدم خروج أحد عليه بعد انتصاره فى شقحب أرى أنه كان راجعًا إلى السياسة التى انتهجها هذا السلطان المنتصر بعد قفوله من المعركة، وجلوسه على تخت الملك، إذ ما لبث أن بعث برسالة إلى القائد التترى المهزوم يهدده فيها ويتوعده ويقول له: «لقد نصحتك فما أرعويْتَ، وبذلت لك القول فما وعيتَ، وركبت فرس البغى أحمر كميت»[(٣)].

والسلطان الناصر محمد فى هذه الفقرات من الخطاب يشير إلى ما سبق أن أومأنا إليه من أنه أرسل إلى القائد التترى قبل نشوب المعركة يطلب منه أن يقدم ما يدل على حسن نيته فى إيثار السلام، وتجنب الحرب، والرغبة فى الصلح، وذلك بأن يبعث رجلاً من خواص دولته للتفاوض مع الدولة المملوكية ورجالها، كما تشير هذه الفقرات أيضًا إلى إعراض الغازان، وعدم تقبله النصح،

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى: ٤/ ٦.

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى ٤/ ٢٦٤.

(٣) كنز الدرر: ٩/ ١٢١.

وإرساله المبعوث المطلوب.

وولج الناصر محمد من تذكير الغازان محمود بالنصح القديم إلى تقديم نصحٍ آخر إليه فى هذه الرسالة الثانية إذ قال له: «وإن شئت أن تقف معنا على الكتاب المبين، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق، ونتركها لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق، وإن سوَّلت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعما قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لا ينفعك الندم، وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل، وهديناك إلى أقوم سبيل»[1].

ثم تأتى بعد هاتين الفقرتين فقرة يأخذ فيها التهديد شكلاً أكثر صرامة، وتبدو لغته أكثر وضوحًا وحدة؛ إذ يحذر الناصر محمد فيها الغازان محمود أن يمسَّ مبعوثى الدولة المملوكية الذين حملوا إليه هذا الخطاب بأى لون من ألوان الأذى، ويطالبُهُ بالإسراع فى مغادرة بغداد؛ يقول: «وتتقدم بإرسال رسلنا المرسولة إليك، ولا تعوقهم يكون وبالاً عليك»[2]، ويقول له: «فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعًا، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعًا»[3].

ومما لا شك فيه أنَّ مثل هذا النصر المؤزر، وما تبعه من السياسة التى انتهجها الناصر محمد فى إرهاب أعداء دولته الطامعين فيها قد أديا - كما سبق أن أشرنا - إلى استتباب الأمور للسلطان المملوكى، وهذا بدوره قد أدى إلى إزاحة

---

(١) كنز الدرر: ٩/ ١٢١.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه: ٩/ ١٢٢.

كثير من الهموم والآلام النفسية التى كانت تئن من ضغطها الشديد كل القوى الفاعلة فى المجتمع بصفة عامة، والمبدعون بصفة خاصة، ولهذا لم يكن غريبًا ولا عجيبًا أن يخلِّد الكتّاب والشعراء هذا النصر الخالد فى أعمالهم، وإبداعاتهم. يقول شهاب الدين النويرى: «وقد ذكر الناس هذه الغزوة نظمًا ونثرًا، ووقفتُ مما عُمل فيها على أشياء كثيرة»[(١)]، ويقول صاحب كنز الدرر: «ونطقت بعد ذلك ألسنة أهل الفضل من الأكابر الذين لأقدامهم صيغت رءوس المنابر[(٢)]».

ومما قيل فى هذه المعركة وكُتِبَ من قصائد ورسائل كتاب علاء الدين بن عبد الظاهر[(٣)] الذى سماه «الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر» وقد أورده بتمامه شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب[(٤)] وقال عنه: «ولما صنف المولى علاء الدين هذه الغزاة، وعُرِضَتْ على المسامع الشريفة السلطانية شمله الإنعام والتشريف السلطانى، ووَفَر حظُّهُ من ذلك، وقد سمعتُ هذه الغزوة من لفظه، ونقلتُها من حظه، وقد أتى فيها أورده بالواقعة المشاهدة، ووفَّى بقوله: إن الغائب إذا وقف على خبره يكون كمن شاهده[(٥)]».

ولم تحتفظ سجلات التاريخ بشىء مما كُتب عن هذه الواقعة نثرًا سوى هذا

---

(١) نهاية الأرب: ٣٢/ ٣٣.

(٢) كنز الدرر ٩/ ٨٩.

(٣) هو علاء الدين على بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان، ولد عام ٦٧٦هـ، وتوفى عام ٧١٧هـ، كان من كبار كتاب الإنشاء بالدولة المملوكية الأولى بمصر والشام. راجع ترجمته فى أعيان العصر ٣ / ٤٨٧ وما بعدها.

(٤) ينظر: نهاية الأرب: ٣٢/ ٣٣ - ٥٠.

(٥) السابق نفسه ٣٢/ ٥٠.

الكتاب، وقد اعتذر شهاب الدين النويرى عن إيراد ما سواه بقوله «وقد وقفت أيضا على جملة مما صنفه الفضلاء فى خبر هذه الغزاة، وهذا الذى أوردته أتمها، وأكملها، وأكثرها استيعابا للواقعة من ابتدائها إلى انتهائها، فلذلك اقتصرت على إيرادها دون ما سواه[1]».

أما ما كُتِبَ عن هذه المعركة شعرًا فقد احتفل المؤرخون به، وأوردوا منه نصوصًا كثيرة بعضها عبارة عن قصائد كاملة، وبعضها الآخر عبارة عن أجزاء من قصائد، أو أبيات مفرَدة استجادوها من بعض القصائد فدوّنوها دون غيرها من الأبيات.

ويهمنا – هنا – بطبيعة الحال أن نشير إلى ما احتفظوا به من النصوص الكاملة، ومن ذلك قصيدة شرف الدين بن الوحيد[2] الرائية التى مطلعها[3]:-

لقد تمّت النُّعمى وأوضِحتْ البُشْرَى

وقد أعْبَقَ الفتحُ المبينُ لنا نَشْرَا

ويبلغ عدد أبياتها ثلاثة عشر بيتا.

---

(١) السابق نفسه ٣٢/ ٥٠. وفى عبارة النويرى خَلَلٌ؛ إذ الصواب أن يقول: «فلذلك اقتصرت على إيراده دون ما سواه».

(٢) هو شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف المعروف بشرف الدين بن الوحيد الزُّرعى، ولد بدمشق عام ٦٤٧هـ، وتوفى بالقاهرة عام ٧١١هـ. راجع ترجمته فى أعيان العصر ٤/ ٤٦٦ وما بعدها.

(٣) أورد القصيدة كلٌّ من: أبو بكر الدواداري فى كنز الدرر ٩/ ٨٩- ٩٠، ومأمون فريزجرار فى «الغزو المغولى أحداث وأشعار» نقلاً عن كنز الدرر.

وقصيدة شمس الدين الطِّيبي[1] الفائية التى مطلعها[2]:

بَـرْقُ الـصَّوَارِمِ للأبـصارِ يَخْتَطِـفُ

والنَّقْعُ يحكـى سـحابًا بالـدِّمَا يَكِـفُ

وقد بلغ عدد أبياتها خمسةً وتسعين بيتًا.

وقصيدة محمد البزاز المنبجي[3] التى مطلعها[4]:

وافى عـلى قـدرٍ مـا يختـارُهُ القـدرُ   وجـاء عـمَّا جناه الـدهرُ مُعْتَـذِرُ

وعدد أبياتها أربعون بيتًا.

وتأتى رائية جمال الدين التبريزى التى خصت من أجلها فى هذا الحديث فى إطار الاحتفاء بهذا النصر وقد بلغ عدد أبياتها مائة وسبعة عشر بيتًا[5]، وقد اخترتها دون

---

(١) هو شمس الدين أحمد بن يوسف بن يعقوب المعروف بشمس الدين الطِّيْبى، ولد سنة ٦٤٩هـ، وتوفى عام ٧١٧هـ. راجع ترجمته فى أعيان العصر ١/ ٤٣٧ وما بعدها.

(٢) أورد بعض أبيات هذه القصيدة كلٌّ من: ابن حبيب فى درة الأسلاك فى دولة الأتراك ١/ ٢٤٧، والصفدى فى أعيان العصر ٥/ ٨٧ وما بعدها، ومأمون فريزجرار فى «الغزو المغولى أحداث وأشعار» نقلاً عنهما، وقد وردت بتمامها في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، ينظر مسالك الأبصار ١٦/ ٢٨٨ – ٢٩٥ منشورات المجمع الثقافي بأبي ظبي بتحقيق الدكتور محمد إبراهيم حوّر، وعن هذا المصدر أوردها الدكتور تدمري بآخر تحقيق كتاب الروض الزاهر.

(٣) هو بدر الدين محمد بن عمر بن أحمد بن المثنى المنبجى الشافعى، ولد بمنبج عام ٦٥٠هـ، وتوفى بمصر عام ٧٢٣هـ. راجع ترجمته فى أعيان العصر ٤/ ٦٧٩.

(٤) أورد هذا النص أبو بكر الدوادارى فى كنز الدرر ٩/ ٩١ وما بعدها، ونقله عنه مأمون فريزجرار فى «الغزو المغولى أحداث وأشعار» صفحة ١٥٩.

(٥) أورد هذا النص كلٌّ من: أبو بكر الدوادارى فى كنز الدرر ٩/ ٩٣ وما بعدها، وشهاب=

غيرها مما أشرتُ إليه من نصوص، وذلك لمجموعة من الأسباب هى:-

أولاً: أنَّ هذه القصيدة هى أطول هذه القصائد من حيث عدد الأبيات.

ثانيًا: أنها النص الشعرى الوحيد الذى أورده شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب بعد انتهائه من ذكر رسالة الروض الزاهر لعلاء الدين بن عبد الظاهر.

ثالثًا: أنه ينطبق عليها ما أشار إليه شهاب الدين النويرى عند حديثه عن رسالة علاء الدين بن عبد الظاهر من أن من قرأها كأنه قد عاين الواقعة وشاهدها، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى من أجله أوردها النويرى فى كتابه مكتفيا بها، ومعرضًا فى الوقت نفسه عن إيراد غيرها من النصوص.

رابعًا: ما لاحظته من أن هذه القصيدة تتميز عن غيرها مما أشرنا إليه من نصوص ببنائها الذى يشبه إلى حدٍّ كبير بناء الرسالة من حيث إن لها مقدمة، وموضوعًا، وخاتمة، ومن حيث إن غرضها الرئيسى قد صيغت عناصره الجزئية بترتيب منطقى وعقلانى، وكثيرًا ما كان الشاعر ينتقل إلى حقل السرد الأدبى ليحكى أحداث الواقعة.

خامسًا: ما لاحظته - أيضًا - من أن هذا النص يتميز عن غيره من النصوص التى قيلت فى هذه المناسبة بسمات فنية كثيرة لعل من أهمها وفرة النغم، وتنوع الأساليب التعبيرية، وكثافة الصور الشعرية، والتناص الدينى والشعرى، إذ كان الشاعر كثيرًا ما يتماس مع العديد من النصوص القرآنية، والحديثية، والأدبية، على ما سأبين فيما بعد.

= الدين النويرى فى نهاية الأرب ٣٢/ ٥١ وما بعدها، ومأمون فريزجرار فى «الغزو المغولى أحداث وأشعار» صفحة ١٧٣ وما بعدها.

الفصل الثالث

الرائية بين الانسجام واللحن

٤٣) المقتضب صنعه أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق [illegible] الشيخ [illegible]

٤٤) الممنوع من الصرف [illegible] كتابات [illegible] الإسلام، [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible] الشعر عبر العصور [illegible]
نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ [illegible]

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد ٢٠٦، [illegible] ١٩٩٦م.

٤٨) [illegible] وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي [illegible] الكتب العلمية [illegible]

أثنى على هذا النص العلامة ابن حجر العسقلانى إذ يقول – فى ثنايا ترجمته للشاعر- «ونظم فى وقعة التتار بشقحب قصيدة أولها: «الله أكبر جاء النصر والظفر»، وهى منسجمة[1]».

ويبدو أن صفة الانسجام كانت من صفات شعر جمال الدين التبريزى ونثره، وقد لاحظها كلُّ من ترجموا له، وعبَّروا عنها بالتعبير ذاته «منسجم»، أو بألفاظ أخرى تدل عليه من مثل قول الصفدى «يَشْعُرُ مثلَ الصَّبا إذا هبَّت، والقطر إذا نَبَّتْ، وينثر الدر مِن فيه نثرًا، ويكتب الرقعة كأنّ صغرى وكبرى[2]، لم تخرج تبريز مثل كلمة الإبريز»[3].

ونقل ابن حجر عن الذهبى قوله «له شعر رائق، ومحاسن كثيرة[4]»، ونقل ابن شاكر الكتبى عن الصلاح الصفدى قوله: «وكان فصيح العبارة،...، عذب الكلام، ينظم نظمًا عذبًا منسجمًا[5]» وهذا الذى رواه ابن شاكر عن الصلاح الصفدى قاله الأخير فى الوافى بالوفيات هكذا: «وكان فصيح العبارة،...، عذب الكلام، ينظم نظمًا عذبًا منسجمًا، فيه بعض شيء من اللحن الخفيِّ جدًّا[6]».

---

(١) الدرر الكامنة: ٣/ ٨ – ٩.

(٢) يريد الصفدى أن يشير إلى أن جمال الدين التبريزى يكتب الورقة أو الصفحة بخط جيِّد أنيق، ولغة رشيقة دقيقة، وفى كلامه التلميح أو الإشارة، وذلك إذ يشير أو يُلمح إلى وصف أبى نواس للخمر فى قوله:

كأنَّ صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

(٣) أعيان العصر: ٣/ ١٢٤.

(٤) الدرر الكامنة: ٣/ ٨.

(٥) فوات الوفيات: ٢/ ٣٦٨.

(٦) الوافى بالوفيات: ١٩/ ٥٦.

وأشار الصفدى أيضًا فى غضون ترجمته للشاعر فى أعيان العصر، وفى الوافى بالوفيات إلى أنه: «عمل مجلدة فى الخطب وسمها بتحفة الألباء،...، وفى هذه الخطب مواضع خارجة عن الصواب من اللحن الخفيِّ[(١)]».

وما أشار إليه الصفدى من وقوع جمال الدين التبريزى فى اللحن له ما يؤكده فى هذا النص الذى نتعرض له بالدرس، ففى البيت الرابع والثمانين من أبيات القصيدة وقع الشاعر فى الإقواء الذى هو عيب نحويٌّ من عيوب القافية[(٢)] وهو «أن يختلف إعراب القوافى فتكون قافية مرفوعة مثلاً، وأخرى مخفوضة[(٣)]».

إن التبريزى يتخلص من الحديث عن دمشق إلى مديح الخليفة أبى الربيع سليمان، والسلطان الناصر محمد فيقول:

٨٣- بالله عَدْوِى على مَـنْ رامها بـأذًى
وبالخليفـةِ والسُّلطانِ أَنْتَـصِرُ

٨٤- همـا مَلاذكُـمُ فى كُـلِّ نائِبَـةٍ
بالرُّوحِ أفديهما والسمع والبصرِ

ففى البيت الثانى، وفى الشطرة الثانية منه قد عطف السمعَ على الروح، ولما كانت الروح مجرورة بالباء كانت السمع هى الأخرى مجرورة، ثم عطف على هذا

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) القافية تاج الإيقاع الشعرى: أ. د. أحمد كشك ص ١٠٦ وما بعدها.

(٣) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر بتحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص١٨١.

المجرور بالعطف كلمة أخرى هى كلمة «البصر»، ومن هنا وجب أن تكون مجرورة هى الأخرى فى صنعة النحو، ولما كانت لفظة البصر هى اللفظة التى تحتوى على حرف الرويّ الذى تنتسب إليه القصيدة من أولها إلى آخرها، وهو الراء، ولما كانت هذه الراء مضمومة من أول النص إلى آخره فإن كسرها – ها هنا- يُعَدُّ عيبًا نحويًّا من عيوب القافية، ولاشك أنه من اللحن الخفى الذى أشار إليه الصفدى؛ لأن انشغال المبدع بسلامة الإيقاع الموسيقى للبيت قد صرفه عن الالتفات إلى ما وقع فيه من اللحن النحوى.

ولعلَّ من اللحن الخفىِّ فى هذا النص – أيضًا- ما وقع فيه الشاعر من الضرائر؛ إذ إن الضرورة «عند جمهور العلماء العرب عبارة عن مخالفة المألوف من القواعد فى الشعر سواء أُلجئ الشاعر إلى ذلك بالوزن أو بالقافية أم لم يُلْجأ[(١)]».

ومخالفة المألوف من القواعد خطأٌ وغلط على حدِّ قول ابن فارس الذى يرى أن الشعراء «يخطئون كما يخطئ الناس، ويغلطون كما يغلطون[(٢)]»، وأنه «لا معنى لقول من يقول: إن للشاعر عند الضرورة أن يأتى فى شعره بما لا يجوز[(٣)]».

وفى هذا النص تتعدد الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر فى الضرائر، وهى فى تعددها تشمل كلّ أنواع الضرورة؛ إذ كان منها ما يتعلق بالضرائر الصرفية، كما كان منها ما يتعلق بالضرائر النحوية، فمن الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر فى

---

(١) الصواب والخطأ فى اللغة، للدكتور رمضان عبد التواب، مقالٌ فى مقدمة تحقيقه كتاب ذم الخطأ فى الشعر لابن فارس، يراجع الكتاب المذكور: ص ٦.

(٢) ذم الخطأ فى الشعر لابن فارس تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب: ص٢٣.

(٣) الصاحبى فى فقه اللغة العربية، وسنن العرب فى كلامها لابن فارس: تحقيق السيد أحمد صقر ص ٤٦٨.

بعض الضرائر الصرفية قوله فى البيت التاسع عشر واصفًا احتدام المعركة:

١٩- والجَـوُّ أغـبر والتاتَـارُ زَاحِفَـةٌ
مِثْـلَ الجَـرَادِ عـلى الـدُّنْيَا قـد انْتَشَرُوا

وقوله فى البيت الثامن والسبعين:

٧٨- ولا تخـافوا مـن التاتـارِ مَجْلَبَـةً
مِـنْ بَعْـدِ مـا ارتفـع التـدليسُ والغَـرَرُ

وموضع الاستشهاد فى هذين البيتين أن الشاعر قد أشبع فتحة التاء الأولى من لفظة التتار فيهما، حتى صارت ألفًا، وربما كانت غايته من ذلك أن يحافظ على سلامة التفعيلة الثالثة من تفعيلات البيت – وهى مستفعلن – من الخبن، إذ إن البيت من البسيط، والشائع فى مستفعلن الثانية من كل شطر فى حشوه سلامتها[١].

على أننا نحب أن نشير إلى أنه لم يكن بحاجة إلى المحافظة على سلامة هذه التفعيلة؛ لأن وزن البيت يستقيم بدون هذه المحافظة، حيث ورد خبن مستفعلن الثانية من كل شطرة فى حشو البسيط التام على قلةٍ في نصوص الجاهليين[٢].

وفى البيت السابع والعشرين من النص يتحدث التبريزى عن لجوء التتار إلى الاحتماء بشماريخ الجبال هربًا من سيوف المماليك فيقول:

٢٧- لاذُوا بِـشُمِّ شَـمَارِيخِ الجِبَـالِ فَـمَا
حَمَـتْهُمُ قَلَـلٌ منهـا ولا مُغُـرُ

---

(١) موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور والفنون للدكتور عبد العزيز نبوى ١/ ١١٤.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وموضع الاستشهاد فى هذا البيت أن الشاعر قد جمع الاسم على غير صيغة جمعه فى قوله «مغر»، ذلك أن الشاعر فى هذا البيت يشير إلى أن التتار لما رأوا الجيش المملوكى قد أحاط بهم، وأن مآلهم إلى القتل أو الأسر لاذوا بالجبال فمنهم من صعد إلى قممها، ومنهم من دخل كهوفها ومغاراتها، ومع هذا لم تحمهم الكهوف والقمم، ومن هنا يتبيَّن أن الشاعر قد استخدم «مغر» على أنها جمع لـ «مغارة»، وهذا خطأ لأن لفظة «مغارة» تجمع على مغارات، وقد قال ابن منظور فى لسان العرب «المغار والمغارة كالغار، وفى التنزيل العزيز: لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدخَلاً.. »(١).

ومن الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر فى بعض الضرائر النحوية قوله فى البيت الحادى والأربعين واصفًا ما آل إليه قتلى التتار من أنهم صاروا طعامًا لوحوش البرية:

٤١- لم يُقْبَرُوا فى نواويسٍ ولا جُدُثٍ
وإنَّما فى بطونِ الوحشِ قد قُبِرُوا

وموضع الاستشهاد فى هذا البيت أن الشاعر قد صرف الممنوع من الصرف فى قوله «نواويس» بالتنوين، وذلك أن النحاة قد قرروا أن كل جمع بعد ألف جمعه حرفان صحيحان أو ثلاثة أحرف أوسطها ساكن منع من الصرف، أى منع من التنوين(٢)، ولفظة نواويس جمع ناووس، قال ابن منظور «والناووس: مقابر

---

(١) اللسان: ٥/ ٣٣١٣.

(٢) اللغة والكلام أبحاث فى التداخل والتقريب، للدكتور أحمد كشك، ص٥٧. نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ٩٥.

النصارى، إن كان عربيًا فهو فاعولٌ منه[1]»، يريد الشاعر أن يقول إن قتلاهم لم يُدْفَنُوا فيما اعتاد أن يدفن النصارى فيه موتاهم من النواويس، كما أنهم لم يدفنوا فى قبور، وربما كان ذلك من شدة كثرتهم، وعدم التفات ذويهم إلى ما يجب من حقوقهم؛ لانشغال من نجا من الموت فى هذه المعركة منهم بنفسه، وكان من جراء ذلك أن صار القتلى طعامًا للوحوش فى البريَّة.

على أن هذا الذى لجأ إليه التبريزى من صرف هذه اللفظة «نواويس» إنما كان ليحافظ على سلامة «مستفعلن» الثانية من الشطرة الأولى من البيت كى لا يدخلها الطىُّ.

وفى البيت الثامن عشر من أبيات النص صرف الشاعر لفظة «صوالج» التى لا تنصرف، وذلك حيث يقول واصفًا الملحمة الدائرة بين المماليك والتتريين:

١٨ - لها السَّنابكُ فى الميْدَانِ قَدْ حُنِيَتْ
صَوَالجًا ولها روسُ العِدَا أُكَرُ

لأنه بغير تنوينها ينكسر وزن البيت؛ لأن مستفعلن حينئذ سيكون قد دخلها الشكل، الذى هو اجتماع الخبن والكف، وهو نوع من أنواع الزحاف المزدوج لا يدخل إلا على تفعيلتين أولاهما فاعلاتن، والأخرى مستفع لن التى تتكون من وتدٍ مفروق بين سببين خفيفين، ولا يدخل أبدًا تفعيلة مستفعلن التى تتكون من سببين خفيفين يليهما وتد مجموع التى هى إحدى التفعيلتين اللتين تتكون منهما التشكيلات المختلفة لبحر البسيط[2].

---

(١) اللسان ٦/ ٤٥٧٥.

(٢) يراجع فى هذا: أوزان الشعر العربى وقوافيه دراسة وتحليل للدكتور إبراهيم الإدكاوى=

وفى هذا البيت نفسه وقع الشاعر فى ضرورة أخرى لكنها من الضرائر الصرفية، وذلك حين حذف الهمزة من كلمة «رءوس»، وإذا كان حذف الهمزة للتخفيف يجيزه النحويون واللغويون العرب نظرًا «لتباعدها من الحروف، وثقل مخرجها، وأنها نبرة فى الصدر»[1]، فإن معنى هذا بمفهوم المخالفة أن الأصل فى نطقها هو تحقيقها، شأنها فى ذلك شأن بقية الحروف، ومن ثَمَّ فإن حذفها فى سعة الكلام يعدُّ لحنًا، ثم إن حذفها فى الشعر يعدُّ ضرورة، وهو - هاهنا- فى هذا البيت ضرورة، مستحسنة للمحافظة على سلامة البينة الإيقاعية لتفعيلة مستفعلن الثانية من الشطرة الثانية من البيت.

ونستطيع أن نزيد هذا الأمر ايضاحًا بتقطيع الشطرة التى وقعت فيها هاتان الضرورتان مرتين: أولاهما بعد منع «صوالج» من الصرف، وتحقيق همزة «رءوس»، وثانيتهما مع صرف لفظة «صوالج»، وتخفيف همزة «رءوس» كما بالنص، ففى الحالة الأولى تكون التفعيلات هكذا:

صوالج	ولها	رءوسلعدا	أكرو
//٥//	///٥	//٥/٥//٥	///٥

= ص ٣٣، الطبعة الأولى ١٩٩٦، وقد حدّد - رحمه الله - البحور التى تقبل تفعيلاتها الشكل فقال «ويقع فى المديد والرمل، وفى الخفيف والمجتث».

(١) المقتضب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤، ١/ ٢٩٢، ويراجع الضرورة الشعرية فى النحو العربى، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم. القاهرة ٧٩، ص ٢٤٢ وما بعدها.

تفعيلة مشكولة دخلها الخبن، وهو حذف الثانى الساكن، والكف وهو حذف السابع الساكن وهو ممتنع فى هذه التفعيلة.	فعلن	أدى تحقيق الهمزة إلى كسر الوزن حين زادت حركة فى أول مستفعلن فتكونت تفعيلة تتركب من وتدين مجموعين بينهما سبب خفيف ولا يوجد لها نظير فى التفعيلات الخليلية.	فعلن

وفى الحالة الثانية تكون التفعيلات هكذا:

صوالجن	ولها	روسلعدا	أكرو
//٥//٥	///٥	/٥/٥//٥	///٥
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فعلن

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: إذا كان هذا النص يكتظ بما حاولنا جلاءه مما ألمح إليه الصفدى من وقوع جمال الدين التبريزى فى اللحن الخفىَّ جدًّا إذا نظم أو نثر، فكيف جاز لابن حجر العسقلانى أن يصفه بالانسجام؟ هل كان العلامة ابن حجر المحدث المؤرخ لا يدرى شيئًا عن العروض والقافية؟، هذا مستبعد لما نعلم من أنه – إلى جوار كونه شاعرًا مفلقًا- كانت له قدم راسخة فى النقد الأدبى بصفة عامة، وفى النقد العروضى بصفة خاصة، والدليل على ذلك أنه ألف كتابًا اسمه «قذى العين من نظم غراب البين»(١) أداره على نقد ألفية بدر

(١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة، الجزء الخامس الخاص بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادى ص١٣٠.

الدين العينى التى نظمها فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى نقدًا عروضيًا، وأورد محقق ديوانه ضمن ما أورد من مؤلفاته فى اللغة «تحرير مقدمة فى العروض[(١)]».

ثم كيف جاز للصفدى قبله أن يجمع فى وصفه نظم الرجل بين العذوبة والانسجام من ناحية، واللحن الخفى جدًّا من ناحية ثانية؟

أليس اللحن – خفى أو ظهر – خرقًا للقاعدة، وخروجًا على الانسجام؟؛ لابد أن الانسجام – إذن – متعلق الأسباب فى اصطلاحهم بمعينيه اللغوى والبديعى، فـ: «انسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم أى انصبَّ[(٢)]».

ولا شك أن صاحب اللسان يقصد بقوله: «أى انصبَّ» معنى التحدر، فقد قال فى مادة (صبب) «والماء ينصبُّ من الجبل، ويتصبَّبُ من الجبل أى يتحدر[(٣)]»، وعلى هذا فهو يريد أن يشير إلى أنه ينزل من أعلى إلى أسفل فى سرعة وتدفق، حيث لايمنعه مانع، ولا يعوق سبيله عائق، وهذا المعنى اللغوى للانسجام يتطابق معه كل المطابقة معناه الاصطلاحى عند أصحاب البديعيات، فها هو ذا صفىُّ الدين الحلى يقول: «الانسجام هو أن يكون الكلام مُتَحَدِّرًا كتحدر الماء المنسجم لسهولة سبكه، وعذوبة ألفاظه، وعدم تكلُّفِه، ليكون له فى القلوب موقع، وفى النفوس تأثير مع، خُلُوِّه من البديع[(٤)]».

---

(١) ديوان ابن حجر العسقلانى، تحقيق الدكتور صبحى رشاد عبد الكريم، نشر دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى عام ١٩٩٠م- مقدمة التحقيق: ص ١٥.

(٢) لسان: ٣/ ١٩٤٧.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٢٣٨٥.

(٤) شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع لصفىّ الدين الحلّى، تحقيق =

ويقول ابن حجة الحموى: «المراد من الانسجام أن يأتى لخُلُوِّه من العقادة كانسجام الماء فى انحداره، ويكاد لسهولة تركيبه، وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقه..، وعلى هذا أجمع علماء البديع فى حدِّ هذا النوع فإنهم قرروا أن يكون بعيدًا عن التصنع، خاليًا من الأنواع البديعية إلا أن يأتى فى ضمن السهولة من غير قصد[(١)]».

ومن هذين النصين اللذين سقناهما من شرح الكافية البديعية لصفى الدين الحلى، ومن خزانة الأدب لابن حجة الحموى يتضح أن بديعيِّى القرن الثامن الهجرى يشترطون فى انسجام النص عددًا من الشروط من أهمها أن يكون خاليًا من عيوب فصاحة اللفظة المفردة، وأن يكون خاليًا من التعقيد بمستوييه اللفظى والمعنوى، وأن يكون خاليا من الفنون البديعية إلا أن تأتى هذه الفنون دون قَصْدٍ أو تعمُّدٍ من الشاعر.

واشتراطهم خلُوَّ النص من هذه الأمور جميعها حتى يكون منسجمًا معناه أنهم يزيلون جميع أنواع العوائق التى من الممكن أن تحول دون تدفقه وتحدُّره.

ومعنى هذا أن لا علاقة للانسجام فى الشعر – حسب تصورهم – بمخالفة القواعد النحوية إلا إذا أدّت هذه المخالفة إلى وقوع الشاعر فيما يعيب فصاحة ألفاظه المفردة، أو فيما يؤدى إلى تعقيد تراكيبه لفظيًّا أو معنويًّا.

ولقد خلت رائية التبريزى – على الرغم من وقوعه فى بعض الضرائر – من العقادة فى ألفاظه وتراكيبها، وما وجدناه فيها من الفنون البديعية جاء عفوًا دون قصدٍ أو تصنع، ومن ثمَّ فقد توافرت فيها شروط الانسجام، وصحَّ وصف ابن حجر لها به.

= الدكتور: نسيب نشاوى مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣م. ص ٢٦٤.

(١) خزانة الأدب: لابن حجة الحموى ١/ ٤١٧.

الفصل الرابع
التناص والدلالة في رائية التبريزي

٤٣) المقتضب صنعه أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق الشيخ [illegible]

٤٤) الممنوع من الصرف [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible] الشعر عبر العصور [illegible]
[illegible] المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة،
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف
بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية،
القاهرة، ١٣٥٨هـ [illegible]

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] بشبندر، ترجمة عبد المقصود
عبد الكريم، الهيئة المصرية [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد
٢٢٦، مصر، ١٩٩٦م

٤٨) نقد الشعر [illegible] تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد
المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، [illegible]

يأتى الحديث عن التناص الدينى والأدبى فى هذا السياق من تحليل النص ليحقق – فيما أتصور – فائدتين على قدر كبير من الأهمية أولاهما: الكشف عن ثقافة المبدع فى تنوعها، والثانية: جلاء نقاط التماس التى وقعت فى هذا النص مع ما سبق من ميراث العربية الدينى، والثقافى، والأدبى.

والمدقق فى قراءة هذا النص يلحظ أن الشاعر كثيرًا ما يتماس مع آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبى ﷺ، وقصائد شعراء العربية الكبار ولاسيما فى العصر الجاهلي، والعصرين الأموى والعباسى.

ولن يقف دورى فى هذا الجزء من البحث على رصدها وحسب – على ما فى رصدها من دلالة على الخلفية الثقافية للمبدع كما سبق أن أشرت- وإنما سأحاول تَجْلِيَةَ دورها فى تعميقه المعانى والأفكار التى أراد الشاعر بثها فى نفوس مستمعيه، وإماطة اللثام عن القيم الجمالية التى خلعتها على القصيدة، باعتبار هذه النصوص التى تماس معها الشاعر قطعًا من الموزايك على حد تعبير جوليا كريستيفا[1].

---

(١) التناصية، لليون سومفيل، ترجمة وائل بركات، مجلة علامات المجلد السادس، الجزء الواحد والعشرون، جدة، سبتمبر ١٩٩٦، ص ٢٣٦.

المبحث الأول

التناص مع القرآن الكريم

وليس من المستغرب أن تكون أكثر نقاط التماس فى هذا النص مع القرآن الكريم، وذلك لما نعلم من أن الشاعر كان يتبوأ عددًا من الوظائف الدينية الكبرى فى عصر الدولة المملوكية الأولى، وعلى رأس هذه الوظائف «وظيفة الخطابة»، فقد أشار من ترجموا له إلى أنه ناب عن ابن جماعة فى الخطابة(١)، والخطيب بحاجة إلى حفظ نصوص الكتاب العزيز ليستشهد بها فى خطابته، وليقتبس منها ما يُدَعِّمُ به آراءه التى يذيعها فى الناس، وقد ذكر كلُّ من ترجموا للرجل أنه حفظ القرآن الكريم وجوَّده، ونقلوا عنه قوله «وقرأتُ القرآن على الزواوى»(٢)، وقوله «وجَوَّدْتُ الختمة على الزواوى»(٣).

كما تولى جمال الدين التبريزى وظيفة القضاء، وأهَّله لهذه الوظيفة أنه كان فقيها شافعيًّا(٤)، حيث نصت كتب التراجم على أنه درس الفقه على كبار فقهاء عصره مثل تاج الدين الفزارى، ونجم الدين الموغانى، وابن جماعة(٥) ثم «تولى القضاء بسلميَّة، وعجلون، وقضاء القضاة بصفد»(٦) من جهة جمال الزرعى(٧)،

(١) الدرر الكامنة: ٣/ ٨.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) أعيان العصر، وأعوان النصر: ٣/ ١٢٦.

(٤) السابق نفسه: ص ١٢٥.

(٥) الدرر الكامنة: ٣/ ٨.

(٦) أعيان العصر: ٣/ ١٢٤.

(٧) السابق نفسه: ٣/ ١٢٥.

وهذه البلدان الثلاثة من بلدان الشام العريقة، ثم توجه إلى مصر مع ابن جماعة الذى ولاه قضاء دمياط، وظل بهذه الوظيفة إلى أن وافته المنية سنة أربعين وسبعمائة[1].

على أن القرآن الكريم - إلى جوار أنه المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى التى يحتاج الفقيه أو القاضى إلى معرفتها، وفهمها، وحفظ نصوصها- يمثل محور ارتكاز فى ثقافة المبدع المسلم بصفة عامة، فهو يستدعيه فى كثير من السياقات التعبيرية التى ينشئها تعبيرًا عن أحاسيسه ونوازعه، وتبيانًا لآرائه، وإفصاحًا عن مواقفه مما يدور حوله من أحداث.

وهناك جانب آخر تجدر الإشارة إليه، وهو ما بين الموضوع الكلى العام الذى يدور حوله هذا النص، وبعض آيات القرآن الكريم وسوره من علاقة أو رابطة، ذلك أن الموضوع الكلى العام للنص هو الإشادة بنصر الله تعالى للمصريين على التتريين، ووصف موقعة مرج الصُّفَّر، وآيات القرآن الكريم وسوره ممتلئة بالحديث عن كثير من المعارك الحربية التى وقعت بين جند الحق وجند الباطل لا فى عصر الرسالة الخاتمة وحدها، وإنما فى عصر الرسالة المحمدية، وما سبقه من عصور.

ولقد ظلت هذه الآيات والسور – ومازالت– معينًا ثرًا يتوارد عليه الكتاب والشعراء، ويقتبسون منه ما يثرى نصوصهم،بالتعبيرات والصور إيمانًا منهم بأن القرآن العظيم هو كتاب العربية الأعلى، وتاج بيانها الأسمى.

لهذه الأسباب جميعها أرجع كثرة نقاط التماس التى وردت فى هذا النص

---

(١)السابق نفسه: ٣/ ١٢٤، ١٢٥.

الشعرى مع بعض مفردات القرآن الكريم وتراكيبه.

وأول المواضع التى برز فيها تأثير المعجم القرآنى على لغة الشاعر هو قوله فى البيت التاسع متحدثًا عن الجنود المصريين فى مواجهة جحافل التتار:

٩- كِنَانَـةُ اللهِ مَـصْرُ جُنْـدُهَا ثَبَتَتْ   لا رَيْـبَ فِيْـهِ وَجُنْـدُ اللهِ تَنْتَـصِرُ

ففى هذا البيت لا تخطيء العين ظاهرة استخدام التركيب القرآنى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، وهو تركيبٌ تكرر عشر مرات فى القرآن الكريم[(١)]، وقد لاحظنا أن وروده فى سبع منها كان فى سياق الحديث عن يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾[(٢)] وقوله عزَّ شأنه: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾[(٤)]، وقوله عز وجل: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾[(٦)]،

---

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقى، طبعه دار الشعب، القاهرة، دون تاريخ، ص ٣٢٩، وقد أخرجت من دائرة الإحصاء المواضع التى يكون فيها مجرور «فى» ضمير الغائب الدال على المفردة المؤنثة كما فى قوله تعالى « وأن الساعة لا ريب فيها» سورة الكهف آية ٢١، ولقد تكرر هذا التركيب أربع مرات في سور الكهف، والحج، وغافر، والجاثية، وكان الضمير فى كل مرة يعود على الساعة.

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٩.

(٣) سورة آل عمران: آية رقم ٢٥.

(٤) سورة النساء: آية رقم ٨٧.

(٥) سورة الأنعام: آية رقم ١٢.

(٦) سورة الإسراء: آية رقم ٩٩.

وقوله تعالى: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[2]. كما لاحظنا أن وروده فى ثلاثة المواضع المتبقية من المواضع العشرة، كان فى سياق وصف القرآن العظيم وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[5].

على أن الشاعر كان من الممكن سياقه التعبيرى أن يستخدم كلمة أخرى من الكلمات التى يُظَنُّ أنها ترادف كلمة «ريب» فى معناها مثل كلمة «شكّ» على سبيل المثال، فيقول «لاشك فيه»، وهو تعبير إلى جوار مقاربته فى المعنى لتعبير «لاريب فيه» موافق أيضًا لبنية البيت الإيقاعية فلماذا لم يفعل؟

ليس أمامنا هنا سوى افتراضٍ من افتراضين:

الأول: أن مفردات القرآن الكريم وتراكيبه التى غاصت عند الشاعر فى اللاوعى كانت تستدعى بطريقة لا إدارية لتجد نفسها داخلة فى غضون سياقاته التعبيرية.

الثانى: أن الشاعر قد عمد عمدًا إلى هذا التعبير القرآنى، وآثره دون غيره

---

(١) سورة الشورى: آية رقم ٧.

(٢) سورة الجاثية: آية رقم ٢٦.

(٣) سورة البقرة: آية رقم ٢

(٤) سورة يونس: آية رقم ٣٧.

(٥) سورة السجدة: آية رقم ٢.

من التعبيرات الأخرى قصدًا منه إلى تعميق المعنى الشعرى لما يعلم أولاً من الفروق اللغوية الدقيقة بين الشك والريب، فلقد قال الفخر الرازى فى تفسير معنى الريب: «الريب قريبٌ من الشك، وفيه زيادة، كأنه سوء ظن»[(١)]، ثم لما يعلم الشاعر ثانيًا من خصوصية التعبير القرآنى، فحين يتحدث المولى-عز شأنه - عن يوم القيامة، أو عن القرآن الكريم ويصفه بأنه «لاريب فيه» فمعنى ذلك أنه يريد «نفى كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه»[(٢)]، وأن يثبت أنه «لا شبهة فى صحته»[(٣)]، وأنه «بلغ من الوضوح إلى حيث لا ينبغى لمرتاب أن يرتاب فيه»[(٤)].

ولأن الشاعر فى موقف الزهو والفخر بما حققه الجنود المصريون من النصر، ولأنه - أيضًا- فى موقف امتداح للخليفة أبى الربيع سليمان، وللسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد أراد أن ينتهج السبيل الذى يتطلبه هذان الموقفان من المبالغة والإغراق فى نفى ما يريد أن ينفى من عرر النقائص الفاضحة، وفى إثبات ما يريد أن يثبت من غرر الخصائص الواضحة فعمد إلى هذا التركيب القرآنى، وأدرجه فى سياق نظمه، مستغلاً طاقاته وايحاءاته التعبيرية فى نفى مظنه الريب عن استبسال الجنود المصريين فى المعركة.

وفى البيت التاسع عشر يصف الشاعر زحف التتار فيقول:

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازى. الناشر دار الغد العربى. الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٢م، ١/ ٣٧٨.

(٢) السابق نفسه: ١/ ٣٧٨.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

١٩- والجَـوُّ أغـبر والتاتَـارُ زَاحِفَـةٌ
مِثْـلَ الجَـرَادِ عـلى الـدُّنْيَا قـد انْتَـشَرُوا

إن الشاعر فى الشطرة الثانية من هذا البيت يتناص مع قوله تعالى فى سورة القمر: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[١].

والقرآن الكريم فى هاتين الآيتين يتوجه بالخطاب إلى النبى ﷺ قائلاً: فانصرف عن مشركى مكة يا محمد، فقد أقمت الحجة، ولسوف تبصرهم فى يوم البعث والنشور وقد خرجوا من قبورهم أذلاء صاغرين، قاصدين أرض المحشر فى فزع وذهول[٢].

وتشبيه خروج الناس من أجداثهم- يوم البعث- بالجراد يدل على ملمحين هما: كثرة أعدادهم، وسرعة خروجهم مع الاضطراب والتموج والجلبة[٣]، أما الكثرة فلأن جميع الخلائق من لدن آدم عليه السلام ستخرج من قبورها للجزاء والحساب، وأما السرعة فلأنهم حينئذ مأمورون مفطورون على تلبية النداء بالخروج، لا يستطيع أحدٌ أن يتباطأ أو يتخلف لأنه لا يملك إرادة التباطؤ أو التخلف، وكأن القرآن الكريم يريد بهذا التشبيه أن يرسم للقارئ صورة لانسداد الآفاق على رحابتها أمام ناظريه بالبشر.

---

(١) سورة القمر: الآيتان ٦، ٧.

(٢) يراجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى طبعة دار الشعب: ص ٦٣٠٠.

(٣) تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى: الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٤هـ، جـ٤، ص٤٤.

ولا شك أن الشاعر قد أراد باستخدام هذا التشبيه القرآنى هذه المعانى جميعها، وكأن التبريزى يريد أن يقول: ما إن اشتعل فتيل الحرب حتى أقبل التتار من كل حدب وصوب، فى كثرة كاثرة، مع السرعة والجلبة، والاضطراب والتموج، قاصدين أرض المعركة، حتى ليخيل إليك أنهم قد تُنُودِىَ عليهم أن اخرجوا، وما هى إلا فترة وجيزة حتى امتلأ بهم الفضاء الرحب، وسُدَّت الآفاق أما الناظرين إليهم بما تتابع من حشودهم، ولم يعد الإنسان بمقدوره أن يفتح عينيه من كثرة ما يتصاعد من الغبار الناتج عن اصطكاك أقدام خيول الجحافل الزاحفة بالأرض.

وفى البيت الخامس والعشرين يتحدث الشاعر عما فعله المماليك بالتترين فيقول:

٢٥- أَصْلَوْهُمُ جَاحِمًا يَشْوِى الوُجُوهَ وَقَدْ
حَمِىَ الوَطِيْسُ ونـارُ الحَـرْبِ تَسْتَعِرُ

والشاعر فى هذا البيت أراد أن يبين كيف استطاع الجيش المملوكى أن ينكل بالتترين، وأن يَصُبَّ جام غضبه عليهم، فجاءت ألفاظه وعباراته مؤدية هذا المعنى أداءً تامًّا، ومحققة لونًا من ألوان التناص أو التماس مع بعض آيات الذكر الحكيم، وذلك حين تطالعنا فى صدر المصراع الأول من البيت جملة «أصلوهم جاحمًا»، وهى تتكون من الفعل «أصلى»، وواو الجماعة التى هى فاعله، وهى عائدة على الجنود المصريين الذين خاضوا الحرب تحت قيادة المماليك، والضمير الدال على جماعة الغائبين «هم» العائد على التتار، وهو مفعول «أصلى»، و «جاحمًا» التى تعنى شديدًا، أو قاسيًا، أو متلهبًا متوقدًا تلهب النار وتوقُّدَها، وهى صفة للمفعول الثانى المحذوف للفعل «أصلى»، وتقدير الكلام بعد تخيُّل

ذكره «أصلوهم ضربًا، أو قتلاً جاحما».

والفعل «أصلى» فعل ماض ينتمى إلى الجذر المعجمى «صَلِىَ»، والهمزة التى فى أوله هى همزة التعدية، وهذا الفعل بمعنى «أذاق»، ولا يستخدم فى العربية إلا فى السياقات الدالة على الإهانة، والتعذيب بالإحراق قال تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾[2]، ولهذا كان ورود لفظة جاحم بعده من باب التلازم اللفظى.

وواضحٌ أن الشاعر فى استخدامه هذا التعبير «أصلوهم جاحما» كان متأثرًا بالعديد من الآيات القرآنية التى عبرت عن مآل المشركين والعصاة فى الآخرة من مثل قوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾[5].

ثم تأتى بعد ذلك جملة ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، وهى جملة فى محل نصب، لأنها وقعت نعتًا ثانيًا لمفعول «أصلى» الثانى المحذوف، وهى تركيب قرآنى خالص ورد مرة واحدة فى سورة الكهف وصفًا للماء الذى يغاث به أهل الجحيم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[6].

---

(١) سورة النساء: آية رقم ١٠.

(٢) سورة النساء: آية رقم ٣٠.

(٣) سورة الواقعة: رقم ٩٤.

(٤) سورة الحاقة: آية ٣٠.

(٥) سورة المطففين: آية رقم ١٦.

(٦) سورة الكهف: آية رقم ٢٩.

وتقييد الموصوف «بماء» بالصفة «يشوى الوجوه» فى النص القرآنى إنما كان للمبالغة فى إظهار شدة لهيبه وغليانه، حتى يكون النفور منه أشد، والتقزز منه أكبر، وتقييد الموصوف المحذوف «ضربًا» بالصفة القرآنية «يشوى الوجوه» فى البيت، إنما كان لزيادة بين درجته، وللمبالغة فى إظهار شدته.

وفى البيت التاسع والعشرين يقول الشاعر:

٢٩- أيــن المَفــرُّ وَقَــد حــام الحِـمَامُ بهم
هيهــات لا مَلْجَــأ يُرْجَــى وَلاَ وَزَرُ[١]

وهو فى هذا البيت يتناص فى ثلاثة مواضع منه مع مفردات القرآن الكريم وتراكيبه، وأول هذه المواضع ابتداء البيت بهذا الاستفهام «أين المفر وقد حام الحمام بهم» فهو مأخوذ من قول الله تعالى ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[٢].

والآية الكريمة تصور حيرة الإنسان، واضطرابه، وتخبطه لحظة خروجه من قبره إلى أرض المحشر، ذلك أن البعث الذى كان يراه فى الدنيا بعيدًا أصبح حقيقة ماثلة أمام عينيه، وليس بمقدوره أن يفر من أرض التناد إلى لجأ أو معاذٍ يحميه من بأس الله تعالى، ومن حسابه، ومن سطوة عقابه، ومن هنا يسأل نفسه موبِّخًا إياها على ما وقع منها فى دنياها من التكذيب والعناد قائلاً لها أين المفر[٣].

والملاحظ أن جمال الدين التبريزى قد وُفِّق حين جعل سياق بيته الشعرى يقترب من روح السياق المعنوى للاستفهام القرآنى، وذلك حين أردف جملة

---

(١) الوزر: الجبل المنيع، وكلُّ معقلٍ، والملجَا، والمعتصمَ. القاموس المحيط ٢/ ١٥٢.

(٢) سورة القيامة: آية رقم ١٠.

(٣) يراجع تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازى: ١٦/ ٢٥.

«أين المفر» بجملة حالية هى قوله «وقد حام الحمام بهم» فخرج السؤال بذلك عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى هو الاستبعاد، ولقد استطاعت ألفاظ الجملة الحالية أن تلفت النظر بقوة إلى تأزم الموقف من خلال حرف التحقيق «قد»، والفعل «حام» بما يشير إليه زمنه من وقوع الحدث قبل بدء الإخبار به، وبما يشير إليه معناه من الدلالة على الالتفات والإحاطة، والحائم المرفرف هو الموت، وهو يرفرف على التتريين المنهزمين الراجين الفرار، الطالبين سبيله، وكأن الشاعر يريد أن يقول إن الموت قد حاصرهم، وأتى إليهم من كل باب، ووقف أمام كل طريق سادًّا فى وجوههم سبل النجاة، ومن ثمّ ففرارهم من قبضته مستبعد.

ونجد فى صدر المصراع الثانى نقطة أخرى من نقاط التماس مع مفردات المعجم القرآنى تتمثل فى لفظة التبعيد «هيهات» التى وردت فى القرآن الكريم مرتين(١) فى آية واحدة هى قوله تعالى: ﴿۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾(٢).

والملاحظ أن الشاعر قد وفق حين استخدم هذه اللفظة فى موضعها هذا من البيت عقب الاستفهام المجازى الذى أورده فى صدر المصراع الأول، ومرد هذا التوفيق إلى أن التبريزى قد لاحظ - ببراعة - السياق الذى وردت فيه هذه اللفظة فى آى الذكر الحكيم، حيث جاءت عقب استفهام إنكارى وجهه قوم عادٍ إلى المؤمنين من بنى جلدتهم بنبي الله هود عليه السلام، وبما جاء به من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث(٣)، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٧٤٠.

(٢) سورة المؤمنون: آية رقم ٣٦.

(٣) تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى: ٣/ ٤٧.

وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

ولفظة «هيهات» فى هذا السياق القرآنى تشى بدلالة مهمة، هى ثقة اللائمين بأنفسهم، وبصحة موقفهم الذى تدعمه - من وجهة نظرهم - الأدلة المادية المتمثلة فى فناء الأجساد وتحللها، وتحولها إلى تراب وعظام.

وهى فى السياق الشعرى تشى بثقة المرسل/ الشاعر بنفسه، وبما أحرز المصريون من النصر، تلك الثقة التى تدعمها - أيضا - الأدلة المادية المتمثلة فيما سبق أن وصفه من تنكيل الجيش المملوكى بالتتريين فى قوله «أَصْلَوْهُمُ جَاحِمًا يَشْوِى الوُجُوهَ»، «وَأَحْرَقَتْهُمْ سِرَاعًا كُلُّ صَاعِقَةٍ مِنَ السُّيُوفِ»، و «لاذُوا بِشُمِّ شَمَارِيخَ الجِبَالِ فما حَمَتْهُمُ»، «وَمُزِّقُوا شُرُدًا بَيْنَ الزِّحَامِ».

والنقطة الثالثة الأخيرة من نقاط التماس التى حدثت فى هذا البيت مع مفردات المعجم القرآنى وتراكيبه تكمن فى قول الشاعر «لا مَلْجَأٌ يُرْجَى وَلاَ وَزَرُ» حيث يستوقفنا التعبير «لا وزر» لأنه يحاكى تعبيرا قرآنيا ورد فى سورة القيامة فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[2].

ومما لا ريب فيه أن ثمة وجوها من المماثلة والمخالفة بين هذين التعبيرين.

أما المماثلة فيمكن أن تُلْتَمَسَ من ناحيتين:

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٣٣- ٣٦.

(٢) سورة القيامة: آية رقم ١١.

الأولى: ناحية الشكل/ فكل من التعبيرين يتكون من لفظين أحدهما حرف وهو (لا)، والآخر اسم، وهو (وزر).

والأخرى: ناحية المعنى الذى أداه التعبير فى السياقين القرآنى والشعرى، وهو نفى الوسائل التى يمكن الاحتماء بها مما قد يصيب الإنسان من سوء المآل، فالقرآن الكريم يشير إلى أنه إذا قامت القيامة لا يستطيع الإنسان أن يجد «ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما»[1]، والشاعر يريد أن يقول إن التترين بعد أن حام الحمام بهم أصبحوا لا يجدون ملجأً ولا جبلاً منيعًا يتحصنون به.

أما وجه المخالفة بين التعبيرين فيكمن فى الوظيفة النحوية لـ (لا) فى كلٍّ منهما، فهى فى النص الشعرى نافية غير عاملة، وفى النص القرآنى نافية للجنس، ناصبة لاسمها، رافعة لخبرها.

وفى البيت السابع والثلاثين يقول جمال التبريزى فى وصف التتريين الفارِّين:

٣٧- لم يَنْفِـرُوا خيفـةً مِـنْ كُـلِّ قَـسْوَرَةٍ
وَفَـــرَّ جَمْعُهُـــمُ إلاَّ وَهْـــمْ حُمُـــرُ

ولا شك أن النص المسيطر على الروح الشعرية فى البيت هو قوله تعالى فى سورة المدثر ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[2].

والآيتان الكريمتان قد وردتا فى معرض الحديث عن وصف إعراض مشركى مكة عن سماع آيات القرآن الكريم، وتدبر ما فيها من التذكير والوعظ

---

(١) تفسير القرطبى: ص٦٨٨٩.

(٢) سورة المدثر: الآيتان ٥٠، ٥١.

قال الزمخشرى «شبههم فى إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر والموعظة، وشرادهم عنه بحمر جَدَّتْ فى نفارها مما أفزعها»(١)، ثم بيَّن القيمة الجمالية لهذا التشبيه القرآنى بقوله «وفى تشبيههم بالحُمُر مَذَمَّة ظاهرة، وتهجين لحالهم بيِّن... وشهادة عليهم بالبله، وقلة العقل، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو إذا رابها رائب»(٢).

ولقد أراد الشاعر بما أحدث من تناص مع الآيتين الكريميتن أن يخلع على التترين هذه الصفات التى خلعها النص القرآنى على مشركى مكة الذين أعرضوا عن سماع القرآن والذكر لأن ثمة وجوهًا من المشابهة بينهما - فيما أتصور - فى موقفيهما من عدويهما يمكن أن نجملها فيما يأتى:

أولاً: أعرض مشركو مكة عن الإنصات لصوت العقل الذى دعاهم إليه عتبة بن ربيعة حين قال لهم: «يا معشر قريش أطيعونى، واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به»(٣).

وأعرض التتريون عن الإنصات لصوت العقل الذى دعاهم إليه الناصر محمد بن قلاوون قبل بدء المعركة حين طلب من الغازان محمود أن يعملا سويا على حل الأزمة بالطرق السلمية، والمفاوضات السياسية.

---

(١) الكشاف: ٤/ ١٦٢.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة، طبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م، ١/ ٣٠٨.

ثانيا: كما تباهى مشركو مكة بكثرتهم العددية، وقدرتهم على وأد الدعوة الإسلامية وصاحبها والذين آمنوا معه تباهى التتريون بكثرتهم العددية، وقدرتهم على سحق الجيش المملوكى إذ أرسل الغازان محمود إلى الناصر محمد بن قلاوون يهدده بما معه من الجيوش «التى هى كمطبقات السحاب»(١).

ثالثا: لم يستطع مشركو مكة مواجهة النبى ﷺ وأصحابه عسكريا، حيث انتصر المسلمون فى بدر، وأحد، والأحزاب، وخسر المشركون فى هذه الحروب الثلاثة ماديًا، ومعنويًا. ولم يستطع التتريون مواجهة الجيش المملوكى فى مرج الصُّفَّر إذ انتصر السلطان الناصر محمد وجنده عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة فى الأنفس والأموال.

وواضح أن جمال الدين التبريزى قد قام بحل التركيب القرآنى حتى تتسنى له عملية تضمينه فى نسيج بيته الشعرى، ثم اعتمد على أسلوب القصر الذى ينهض على النفى والاستثناء فى إعادة بناء الصورة وتشكيلها.

وفى البيت الخامس والأربعين يتوجه الشاعر بالخطاب إلى مستمعيه قائلاً:

٤٥- فَقَاتِلُوهُمْ جَمِيْعَا إنَهم تَتَرٌ
كم أرسلوا رُسْلَهُمْ تَتْرَى وَكَمْ مَكَرُوا

وهو هنا يدعو السلطان أبا الربيع سليمان، والناصر بن قلاوون ومن وراءهما من جند المماليك إلى قتال أعدائهم المتربصين بدولتهم من التتريين والصليبين جميعا، إذ لا يقل الصليبيون عن التتريين فى الهمجية والوحشية، والتخريب والإفساد، فقد «فعلوا فى الصالحية ما لا تفعل التتر»، و «حرقوا فى

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى: ٨/ ١٣٧.

نواحيها»، «وخربوا الشامخ العالى».

وكلٌ من الصليبيين والتترين ينتهجون فى سبيل تحقيق أهدافهم سياسات تقوم على الغش والكذب، والمكر والخيانة، وآية ذلك أن مبعوثيهم الذين تتابعوا على بلاط السلطان المملوكى للتفاوض كانوا جزءًا من منظومة التدليس والغرر الذى يستخدمونها فى الإيقاع بأعدائهم.

ويستوقفنى فى الشطرة الثانية من البيت قوله: «كم أرسلوا رُسْلَهُمْ تَتْرَى» لأنه يحاكى تعبيرًا قرآنيا ورد مرة واحدة[1] فى الكتاب العزيز فى مستهل الآية الرابعة والأربعين من سورة المؤمنون، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

والنص القرآنى يشير إلى ما كان من تعاهد الله – تعالى – البشرية بالهداية فى المدة الزمنية الواقعة بين رسالتى النبيَّيْن الكريمين هود وموسى عليهما السلام حيث أرسل الله –تعالى– رسلاً عديدين إلى الأمم والأقوام الكثيرة التى كانت تحيا على البسيطة فى هذا الأمد المتطاول[3]، كما يشير النص القرآنى إلى ما قوبل به هؤلاء الرسل من الجحود والتكذيب، وإلى ما حاق بهذه الأمم المكذِّبة من

---

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص٧٤١.

(٢) سورة المؤمنون: آية رقم ٤٤.

(٣) يرى الفخر الرازى أن القرآن الكريم يشير على سبيل الإجمال فى هذه الآية إلى ما حدث لأقوام أنبياء الله تعالى لوط، وشعيب، وأيوب، ويوسف عليهم السلام. يراجع مفاتيح الغيب: ١١/ ٣٧٧.

غضب الله – تعالى – عليهم، ومعاقبته إياهم بالإبادة والاستئصال[١].

وأظن أن استدعاء التبريزى التعبير القرآنى «ثم أرسلنا رسلنا تترى»، وإدراجه إياه فى ثنايا بيته، كانت تقف وراءه رغبة الشاعر فى الاستفادة من الدلالات المتعددة للفظة «تترى» التى أشار إليها المفسرون، حيث قالوا إنها قد تدل على أن الله – تعالى – أرسل رسله إلى هؤلاء الأقوام رسولاً بعد رسول على فترات زمنية متباعدة، كما قد تدل على أنَّ إرسال هؤلاء الرسل كان على سبيل التتابع بغير مهلة، قال القرطبى: «قال الأصمعى: واترتُ كتبى عليه اتبعتُ بعضها بعضا؛ إلا أن بين كل واحدٍ منها وبين الآخر مهلة. وقال غيره: المواترة التتابع بغير مهلة»[٢]. وكأن الشاعر يريد أن يقول أن مبعوثى الصليبيين والترين كانوا يردون إلى البلاط السلطانى على فترات متقاربة حينا، وعلى فترات متباعدة أخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا هو الموضع الوحيد فى القصيدة الذى حدث فيه التناص فى اللفظ والمفارقة فى الدلالة، لأن التعبير الشعرى بصيغة الإنشاء غير الطلبى «كم أرسلوا رسلهم تترى وكم مكروا» يحمل قدرًا لا بأس به من الدعوة إلى الاستخفاف بهم، وعدم الاهتمام بما يحملون من مراسلات.

وفى البيت السادس والستين يخاطب الشاعر جند المماليك محرضا على قتال الصليبيين قائلا:

---

(١) يراجع تفسير الطبرى المسمى «جامع البيان فى تأويل القرآن» طبعة دار الغد العربى بالقاهرة: ٩/ ٢٣٩.

(٢) تفسير القرطبى: ص٤٥١٧.

٦٦- جوســوا دِيَــارَهِمْ واسـبوا حَــرِيمهَمُ

وَأَوْقِروا ضِـعْفَ مـا أَوْعَـوْا ومَـا وَقَـرُوا

ونتوقف عند المركب الفعلى الأول فى هذا البيت «جوسوا ديارهم» لنلاحظ أن الفعل «جوسوا» ينتمى إلى الجذر المعجمى «جوس» الذى تدور معانيه فى السياقات التعبيرية المختلفة التى يدخل فيها حول ثلاثة محاور:

الأول: الطواف والطلب، حيث جاء فى لسان العرب «وفى الصحاح: جاسوا خلال الديار أى تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار، أى يطلبها»[١].

الثانى: الوطء والدوس، قال ابن منظور: «وكل ما وطىء فقد جيس، والجوس كالدوس، ورجل جوَّاس: يجوس كل شىء يدوسه»[٢].

الثالث: الجوع والبؤس، قال ابن منظور: «الجوس: الجوع»[٣].

وعلى هذا فالشاعر يدعو جند المماليك إلى وطء ديار أعدائهم ودوسها، وإهلاك ما فيها من الزرع والضرع تنكيلا بها، وإهانة لساكنيها، كما يدعوهم إلى الطواف والتجول بين مساكنها، بحثا عن أكابر مجرميها، وتعقبا لأئمة الفساد فيها.

وغنى عن البيان أن هذا التعبير الشعرى بدلالاته التى شرحتها مأخوذ من التعبير القرآنى «فجاسوا خلال الديار» الذى ورد مرة واحدة[٤] فى سورة

---

(١) لسان العرب: ١/ ٧٢٦.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ١٨٦.

الإسراء فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾[١].

وفى البيت الحادى والثمانين يقول التبريزى، فى غضون حديثه عن دمشق:

٨١- ملائِكُ الله تحميها وتَحْرُسُها

تَعَاقُبًا، ولها من ربِّها خَفَرُ

إن الشاعر -ها هنا- يتحدث عن دمشق فيقول إنها مدينة تحوطها العناية الإلهية، حيث قيضت لها الملائكة التى تتعاقب على حراستها وحمايتها من أن تصيبها الأسواء، أو تأتى على معالمها عوامل الفناء. وهذا معنى قرآنى خالص ورد مرة واحدة[٢] فى سورة الرعد فى قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[٣].

قال القرطبى فى شرح معنى قوله تعالى «له معقبات»: «أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار. فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار»[٤].

وقال فى شرح معنى الحفظ: «اختلف فى الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرة، لطفًا منه به،

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم ٥.

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٤٦٨.

(٣) سورة الرعد: آية رقم ١١.

(٤) تفسير القرطبى: ص ٣٥٢٠.

فإذا جاء القدر خلُّوا بينه وبينه، قاله ابن عباس، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما»[١].

ويقول فى شرح معنى قوله تعالى «من أمر الله»: «أى بأمر الله وبإذنه فـ «من» بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وقيل «من» بمعنى «عن» أى يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم»[٢].

وتنتشر فى أبيات النص الدوال القرآنية بمعانيها الواردة فى كتابنا المحكم ومن ذلك مثلا دال «التوبة» الذى استخدمه الشاعر فى قوله:

٥٩- وجـامِعُ التوبَـةِ المحـروقُ مهجتُـهُ

يُـشِيْرُ لا توبــة للقــومِ إنْ ظَفَـرُوا

وهذا البيت قد ورد فى نهاية مجموعة من الأبيات التى تصور بشاعة ما ارتكب الصليبيون فى بلاد الشام من الجرائم، وهى الأبيات التى تبدأ من البيت الثانى والخمسين، وتنتهى بهذا البيت التاسع والخمسين.

وألاحظ أن الشاعر يستثمر البعد الدينى فى حفز همم معاصريه للدفاع عن أرضهم وديارهم، وقد سلك فى هذا البيت مسلكين لتحقيق هذا الهدف، الأول: ويتمثل فى إشارته إلى ما فعله أعداؤهم بالمقدسات الدينية من اعتداءات وانتهاكات، حيث حرقوا جامع التوبة الذى بالعقيبة[٣]، والثانى: ويتجلى فى نفيه

---

(١) تفسير القرطبى: ص ٣٥٢٠.

(٢) السابق نفسه: ص ٣٥٢١.

(٣) يراجع حديث النعيمى عن هذا الجامع فى الدارس فى تاريخ المدارس: ٢/ ٤٢٦.

لمستمعيه احتمال توبة هؤلاء إن هم ظفروا بما يريدون من الاستيلاء على دمشق.

ويقابلنا فى البيت الحادى والخمسين المركب الفعلى [ادَّكِرُوا] وذلك فى قول الشاعر:

٥١- اشــفوا صُــدُورَكُمُ إنْ كُنْــتُمْ غُــيُرًا

عــلى نــسائِكُمُ يــا قــومُ وادَّكِــرُوا

وهو يتكون من فعل الأمر [ادَّكر]، و [واو الجماعة] التى هى فاعله، ولست أعرف على وجه اليقين إلى أى جذر معجمى ينتمى هذا الفعل، وما بين أيدينا من أقوال العلماء فيه يشير إلى أنه قد يكون من مادة [دَكَرَ]، وقد يكون أصله [اذتكر].

وعلى الاحتمال الأول يكون هذا اللفظ غير عربى، قال ابن منظور «وقد قال الليث: الدِّكْرُ ليس من كلام العرب»[(١)]، وخَطَّأَ ربيعة فيما تَنْطِقُ به فقال: «وربيعة تغلط فى الذِّكْرِ فتقول دِكْر»[(٢)].

وعلى الاحتمال الثانى يكون هذا اللفظ عربيًا غير أنه قد دخله الإبدال والإدغام، قال القرطبى: «قال النحاس: أصل ادّكر اذتكر، والذال قريبة المخرج من التاء، ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة، والتاء مهموسة... فأبدلوا من موضع التاء حرفًا مجهورًا وهو الدال...فصار اذدكر، فأدغموا الذال فى الدال لرخاوة الدال ولينها»[(٣)].

---

(١) لسان العرب: ٢/ ١٤٠٣.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) تفسير القرطبى: ص ٣٤٣٠.

وسواء أصح ما نقله ابن منظور عن الليث وكان اللفظ غير عربى، أم لم يصح وكان عربيًا، فالملاحظ أنه غير شائع الاستخدام فى العربية.

وقد ورد الفعل (ادَّكَرَ) مرة واحدة فى القرآن الكريم(١) فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾(٢).

ووردت صيغة (مُدَّكِر) ست مرات فى سورة واحدة هى سورة القمر(٣)، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٤)، وتكرر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٥) أربع مرات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٦).

ويرى الإمام القرطبى أن معنى قوله تعالى: «وادّكر بعد أمة» أى تذكر بعد حين(٧)، ويقول الطبرى فى تفسير قوله تعالى: «فهل من مدكر»، «يقول: فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر»(٨).

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: لم آثر الشاعر هذا التعبير (ادَّكِروا)، ورفض ما سواه من التعبيرات المألوفة فى الاستعمال اللغوى العربى من مثل:

---

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٢٧٥.

(٢) سورة يوسف: آية رقم ٤٥.

(٣) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٢٧٥.

(٤) سورة القمر: آية رقم ١٥.

(٥) سورة القمر: الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٦) سورة القمر: آية رقم ٥١.

(٧) تفسير القرطبى: ص ٣٤٣٠.

(٨) تفسير الطبرى: ١١/ ٦٠٢.

اعتبروا، واتعظوا؟

ولعل الجواب يكمن فى أن الشاعر يريد أن يلفت مستمعيه إلى أن ما حلَّ بهم من البلاء على أيدى الفرنجة لا ينبغى نسيانه، لأنه أصابهم فى أعراضهم، وأموالهم، وأنفسهم إذ

٥٢- كَمْ مِنْ عجوزٍ ومن شيخٍ ومُكْتَهِلٍ
ومن فتاةٍ نهاها الحُسْنُ والخَفَرُ

٥٣- بَيْضَاءَ خُرْعُوبَةٍ بِكْرٍ مُحَجَّبَةٍ
لا الشَّمْسُ تَنْظُرُها صونًا ولا القَمَرُ

٥٤- وذاتِ بَعْلٍ مُخبَّأَةٍ مُخَدَّرَةٍ
من دونها تُضْرَبُ الأستارُ قد أَسَرُوا

٥٥- ومُطْفِلٍ أَثْكَلُوا وَجْدًا بواحِدِها
وحاملٍ أُجْهِضَتْ خَوْفًا وقد ذُكِرُوا

٥٦- ومربعٍ أَقْفَرُوا مِنْ بَعْدِ ساكِنِهِ
وعِقْدِ شَمْلٍ نظيمٍ جامعٍ نثروا

ويرى صبرى حافظ أن النقد العربى حافل بالعديد من المصطلحات التى تحمل أفكارًا تناصية مهمة(١)، ومن هذه المصطلحات مصطلح الاقتباس الذى

---

(١) يراجع التناص وإشاريات العمل الأدبى لصبرى حافظ، مقال منشور بمجلة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤ الصفحات من ٢٦- ٣٠.

يعنى: «أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة»[1]...

وواضح أن ما ورد من تناص مع ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه فيما أشرت إليه من الأبيات السابقة كان يدخل فى إطار الاقتباس عند لفيف من البلاغيين القدماء.

ومن هذه المصطلحات- أيضا - مصطلح الإشارة الذى يعنى عند أصحاب البديع «أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير بإيماءة ولمحة تدل عليه»[2]، ولعل من هذا المستوى التناصى قول التبريزى فى البيت السابع والتسعين يمدح الخليفة أبا الربيع سليمان

٩٧- مـاذا أقـولُ بمدحِيْـهِ وَقَـدْ تُليَـتْ
فى مـدح آبائـه الآيـاتُ والسُّوَرُ

لأنه يشير فى هذا البيت إلى الآيات القرآنية التى أثنت على آل بيت النبى ﷺ من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[3]. وقوله فى البيت الذى يليه:

٩٨- جـاءَتْ بِنَعْـتِهِمُ التـوراةُ مَعْرِبـةً
وَمُحْكَـمُ الـذِّكْرِ والإنجِيـلُ والزُّبُـرُ

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى: ٢/ ٤٥٥.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة الحموى: ٢/ ٢٥٨، وحسن التوسل للشهاب محمود: ص١٠٠.

(٣) سورة الأحزاب: آية رقم ٣٣.

إذ يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [1].

وهذه الآية لا تتحدث عن صفات آل بيت النبى ﷺ، وإنما تتحدث عن صفات أصحابه الذين آمنوا به، وعزروه، ونصروه، ويدخل فيها الصحابة من آل البيت – رضوان الله عليهم – بوصفهم من أتباعه الذين معه، وعلى هذا فإن إشارة الشاعر إلى هذه الآية فى بيته غير دقيقة.

---

(١) سورة الفتح: آية رقم ٢٩.

المبحث الثاني

التناص مع التراث الشعرى

يحتل التناص مع التراث الشعرى العربى فى هذه القصيدة المرتبة الثانية بعد التناص مع القرآن الكريم.

وأول المواضع التى حدث فيها تناص مع الشعر القديم هو قوله فى البيتين الخامس والسادس:

٥- أَيْـنَ النُّجُـومُ وتَـأْثِيْرُ القـران ومـا
تَخَرَّصُـوا فيـه مِـنْ إِفْـكٍ ومـا زَجَـرُوا

٦- قَـدْ دَبَّـرَ اللهُ أَمْـرًا غَـيْر أَمْـرِهِمُ
وَخَـابَ مـا زَخْرَفُـوا فِيْنَـا ومـا هَجَـرُوا

ولاشك أن النص المسيطر على الروح الشعرية فى البيتين هو قول أبى تمام فى بائيته

أَيْنَ الروايةُ، بـل أيـن النُّجُـومُ ومـا ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ
تخرصـا، وأحاديثـا ملفقـة ... ليستْ بِنَبْـع إذ عُـدَّت ولا غـرَبِ
عجائبًـا زعمـوا الأيـامَ مجفلـةً ... عنهنَّ فى صفر الأصفارِ أو رَجَـبِ
وخوَّفوا النَّاس مِنْ دَهْيَاءَ مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكبُ الغربىُّ ذو الـذَّنَبِ
وَصَـيَّرُوا الأبـرج العليـا مرتبـةً ... مـا كـان منقلبًـا أو غـيرَ مُنقَلِـبِ
يقضون بـالأمرِ عنهـا وهـى غافلـةٌ ... مـا دار فى فَلَـكٍ منهـا وفى قطـب

والفارق الذى بين أبى تمام وجمال الدين التبريزى، أن أبا تمام قد استهل قصيدته بالسخرية بالمنجمين، والهزء بهم فى عشرة أبيات بسبب أنهم خوفوا

المعتصم من خوض الحرب فى الوقت الذى اختاره لها، وذلك حين قالوا له – وقد جمعهم لأخذ مشورتهم – إن كتبنا تشير إلى أن فتحها لن يكون إلا عند نضج التين والعنب. يقول المؤرخون أصمَّ المعتصم أذنيه، ولم يستمع لهذه المشورة التى رأى فيها تثبيطًا وتخاذلاً، ومضى لفتح عمورية فى الوقت الذى اختاره فتحقق له النصر.

وكأن أبا تمام يريد فى مطلع النص أن يعلن «ما اقتنع به من فلسفة القوة»[(١)]، وأن يدعو إلى رفض الأفكار والفلسفات التى تقوم على الوهم أو الدجل.

أما جمال الدين التبريزى فلم يكن لحديثه عن النجوم والمنجمين وتخرصاتهم فى البيتين اللذين أوردتهما ما يبرره، إذ لم تشر المصادر التاريخية إلى أن أحدًا من المنجمين قد تحدث مع الناصر محمد بن قلاوون فى شيء يتعلق بأمر موقعة مرج الصفر على الإطلاق.

وفى البيت التاسع والثمانين وما بعده يمتدح التبريزى الخليفة العباسى بالقاهرة أبا الربيع سليمان فيقول:

٨٩- أبـو الرَّبيـع سُـلَيْمانُ الـذى شَـهِدَتْ
بفــضلِهِ المــستفاضِ البــدوُ والحَــضَرُ

٩٠- وزمــزمٌ والــصَّفا والمأزِمَــانِ معًــا
والبيــتُ يَعْرِفُــهُ والحِجْــرُ والحَجَــرُ

وهو فى هذين البيتين يتناص مع أبيات الفرزدق التى قالها فى مديح على ابن الحسين بن علي بن أبى طالب التى منها:

---

(١) القصيدة العباسية قضايا واتجاهات للدكتور عبد الله التطاوى: ص ٢٧٤.

هذا الذى تَّعْرِف البطحاءُ وطْأَتَهُ ... والبيتُ يعْرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا علىٌّ رسَولُ الله والدُهُ ... أَمْسَتْ بنور هداه تهتدى الأُمَمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حبُّهم دينٌ، وبَعْضُهُمُ ... كُفْرٌ، وقربُهُمُ منجى ومعتَصَم
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التقى كانوا ائمتَهُمْ ... أوقيل مَنْ خيرُأهل الأرض قيل هُمُ
لاَ يستطيعُ جوادُبُعْدَ جودِهمُ ... ولا يُدَانِيْهِمُ منهُمُ قومُ وإنْ كَرمُوا
فليس قولك مَنْ هذا بَضَائِرِهِ ... العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ والعَجَمُ

ويذكر الرواة أن الفرزدق قال هذه الميمية العصماء فى موسم الحج ردًا على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك الذى ساءه أن يفسح الناس لعلى بن الحسين فى الطواف، وأن ينزلوه منزلته التى تليق به من الإجلال والإكرام(١).

والفرزدق فى هذا المقطع الذى اخترناه منها يرد على إساءة الخليفة الأموى، ويمتدح على بن الحسين بمجموعة من الصفات هى انتماؤه إلى الدوحة النبوية المباركة، والتقى، والطهر، وصفاء النفس ونقاؤها، ونباهة الذكر.

واستدعاء جمال الدين التبريزى هذا النص التراثى فى سياق مديحه الخليفة العباسى أبا الربيع سليمان لا يخلو من دلالة، ولكن ما هى؟

أيريد التبريزى أن يشير إلى أن ثمة وجوهًا من المشابهة بين ممدوحه وممدوح الفرزدق؟ أم يريد أن يُعْلِى من شأن الخليفة العباسى وصولاً إلى إضفاء الشرعية على حكم المماليك؟

أغلب الظن أنه يريد الإعلاء من شأن الخليفة العباسى إضفاءً للشرعية على حكم المماليك، وذلك لإفراطه الشديد فى امتداح الخليفة والسلطان معا فلقد

---

(١) ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستانى، ٢/ ١٧٨.

امتدحهما بالعدل فى قوله:

٨٥- إذا تأمَّلْتَ فحوى سِرِّ حُكْمَهِما
لم تَدْرِ أيُّهما فى عَدْلِهِ عُمَر

وامتدحهما بالعلم فى قوله:

٨٦- وَلو رأيتَهُما يومًا لخالك أن
موسى بن عمران قد وافاك والخضرُ

وامتدحهما بالعفة والتقى، وحُسْنِ السمعة، وطيب الذكر فقال:

٨٧- هما رضيعا لبانٍ عِفَّةً وتقىً
وحُسْنَ ذكرٍ شذاه فائِحٌ عَطِرُ

وعقد عليهما الآمال فى إعادة ما سلبه التتار من ديار الإسلام فقال فى معرض امتداحه للناصر محمد:

١٠٤- إنَّا لنرجوه من بغدادَ يُنْهِلُها
بماءِ دِجْلَةَ يرويها فتصطِرُ

١٠٥- وَيَجْمَعُ الشَّمْلَ فى دارِ السَّلامِ بِمَنْ
يودُّها ويؤدُّون الذى نَذَرُوا

١٠٦- يَؤُمُّها وإمامَ المسلمين معًا
ثقوا بقولى فهذا منه مُنْتَظَرُ

ويقول التبريزى فى سياق مديحه الخليفة العباسى أيضا:

٩١- خَلِيْفَةُ اللهِ فى الدنيا وطاعَتُهُ
فرضٌ عليكم وهذا القولُ مُخْتَصَرُ

٩٤- خليفــةٌ مــن بنــى العبّــاسِ باقيــةٌ

بــــه إلى الله نَسْتَــــسْقِى فَنُمْتَطــــرُ

وهو فى هذين البيتين يتناص مع الأخطل الشاعر الأموى المشهور فى قوله ممتدحًا عبد الملك بن مروان:

الخـائِضُ الغَمْـرَ، والميمـونُ طـائِرُهُ
خليفــةُ الله يُسْتَــسْقَى بــه المطــرُ

وبيت الأخطل من قصيدة رائية مشهورة مطلعها(١):

خفَّ القطين فراحوا منك أو بكـروا
وأزعجـتهم نـوىً فى صرفهـا غِـيَرُ

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: وعلام يدل هذا التناص؟

والجواب: إنه يدل - فيما أتصور - على أن التبريزى يعى تاريخ أمته العربية، ويعى تاريخ نضالها السياسى لتبقى قوية فى مواجهة أعدائها من الروم الذين يتحرشون بها بين الحين والحين، والدليل على ذلك الوعى أن النصوص الشعرية الخالدة التى قيلت فى امتداح أبطال هذا النضال محفورة فى ذاكرته، إذ لا يجب أن ننسى فى هذا السياق أن الأخطل قد امتدح عبد الملك بن مروان بقصيدة بائية قال فيها(٢):

وفى كـلِّ عـامٍ منـك للـروم غـزوةٌ
بعيــدة آثــار الــسنابك والــسَّربِ

يُطَـرِّحْنَ بـالثغر الـسِّخال كـأنما
يُـشَقِّقْنَ بالأَسْـلاء أرديـةَ العَـصْبِ

---

(١) يراجع فى تحليل النص: الأخطل شاعر بنى أمية للدكتور سيد غازى: ص ١١٧ وما بعدها.

(٢) يراجع فى تحليل النص: الأخطل شاعر بنى أمية للدكتور سيد غازى: ص ١٢٣ وما بعدها.

بنـاتُ غـرابٍ لم تُكَمَّـل شـهورها تَقَلْقَلْنَ مـن طـول المفـاوز والجـدبِ
وإنَّ لهـا يـومين يـومَ إقامـة ويومًا تشكّى القضَّ من حذر الدربِ
غموسُ الدجى تنشقُّ عن مُتَضَرِّمٍ طلوبِ الأعادى لا سئومٍ ولاوَجْبِ

المبحث الثالث

بين جمال الدين التبريزي، ولقيط بن يعمر الإيادي

بين جمال الدين التبريزي صاحب الرائية موضوع الدراسة، ولقيط بن يعمر الأيادي الشاعر الجاهلي المشهور صاحب العينية التي حرَّض فيها قومه على ردِّ عادية الفرس قبل يوم ذي قار، بينهما مشابه كثيرة منها:

أولاً: أن كل واحدٍ من الشاعرين كان خطيبًا مدرهًا إلى جوار كونه شاعرًا مفْلقًا، فالتبريزي واحدٌ من خطباء القرن الثامن الهجري المشهورين، وله – كما سبق أن أشرنا – ديوان خطب «سماه تحفة الألباء»[(١)]. ولقد روت سجلات التاريخ أنه خطب يومًا نائبًا عن ابن جماعة بجامع دمشق فأحدثت الخطبة في نفوس المستمعين أثرًا طيِّبا فهُرع بعض تلامذة ابن جماعة إلى شيخهم وقالوا له «لو دام هذا راحت منك الخطابة»[(٢)]، وذلك لما رأوا من تحقق صفات الخطيب الناجح في التبريزي حيث كان «ذا شكالة وعمة، وحركات وهمة، أبيض اللحية نقيها، أحمر الوجنة ورديها، عليه قبول، وللنفس إليه تشوُّقٌ وبه ذهول»[(٣)].

ولقيط بن يعمر الإيادي كان أحد خطباء إياد الخمسة المشهورين قس بن ساعدة، ولقيط بن يعمر، وعذرة بن حجيرة، وزيد بن جندب، وأبو داود بن حريز، وقد ذكروا جميعًا في قول أحد الشعراء في رثاء أبي داود بن حريز[(٤)]:

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي ٣/ ١٢٧، والدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٨، وانظر المبحث الأول من هذا الفصل.

(٢) السابق نفسه ص ١٢٦.

(٣) السابق نفسه ص ١٢٤.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٤٣، وانظر: ديوان لقيط بن يعمر صفحة ٨ هامش رقم ٣ ففيه إشارة نفيسة.

زعيم نزارٍ كلِّها وخطيبُها ... إذا قام طاطا رأسه كلُّ مِشغَب

سليل قرومٍ سادة ثمَّ قالةٍ ... يبذُّون يوم الجمع أهل المحصَّبِ

كقس إياد أو لقيط بن يعمرٍ ... وعذرةَ والمنطيق زيد بن جندب

ثانيًا: أن كلا الشاعرين فقد ديوان شعره، ولم يتبق منه في سجلات التاريخ السياسي والأدبي للأمة العربية سوى قصيدة واحدة وبضع مقطوعات، فلقد ضاع شعر التبريزي، ولم يصل إلينا منه سوى القصيدة الرائية وتسع مقطوعات شعرية[1]، وضاع شعر لقيط بن يعمر ولم يتبق منه سوى القصيدة العينية ومقطوعة شعرية واحدة من أربعة أبيات[2].

ثالثًا: أن النصين اللذين سلما للشاعرين كانا في موضوع واحدٍ، وهو موضوع الدفاع عن القومية العربية، والذود عن حياضها، والتحريض على ردِّ عادية المعتدين على بيضتها.

رابعًا: أن نصَّي الشاعرين قد حازا شهرة واسعة، وحظيا باهتمام النقاد ومؤرخي الآداب، فلقد مرّ بنا ثناء كلٍّ من الدواداري، والنويري، وابن حجر العسقلاني على الرائية، أما عينية لقيط بن يعمر فيبدو أنها كانت من النصوص التي حظيت بانتشارٍ واسع، فلقد ذكر المبرّد أن الحجاج بن يوسف الثقفي

---

(١) أورد الرائية – كما سبق أن أشرنا – الدواداري في كنز الدرر، والنويري في نهاية الأرب، والمقطوعات يوجد منها ستا بأعيان العصر والوافي بالوفيات، ويوجد منها اثنتان بتذكرة النبيه، وواحدة بالدرر الكامنة.

(٢) ينظر: ديوان لقيط بن يعمر ص ٢١.

وصف ببعض أبياتها المهلب بن أبي صفرة[1]، وورد منها خمسة أبيات في العقد الفريد لابن عبد ربه[2]، ويذكر الدكتور عبد المعيد خان أن ابن دريد يعدها أفضل قصيدة تحذير كتبها العرب[3].

وأستطيع أن أقرر أن عينية لقيط كانت تقف بألفاظها، ومعانيها، وموسيقاها في الخلفية الثقافية لجمال الدين التبريزي وهو ينظم رائيته، فلقد جاءت الرائية من البحر نفسه الذي تعتزي إليه العينية، وهو بحر البسيط، ومن صورته التي نظم عليها لقيطٌ نصَّهُ، وهي الصورة الأولى من صور تشكيلاته التامة، تلك التي تكون العروض فيها مخنونة ويكون الضرب مثلها.

وعرفت ألفاظ العينية ومعانيها سبيلها إلى نص الرائية، فها هو ذا لقيط بن يعمر يتحدث عن زحف الفرس على قبائل العرب بجيش عرمرمٍ فيقول[4]:

لو أنّ جمعُهم رامــوا بهدَّته شُمَّ الشماريخ من ثهلان لا نصدعا

يريد لقيطٌ أن يقول: إن الفرس قد أعدوا لحرب الإياديين جيشًا كثيفًا لو طُلِبَ منه أن يُخْضِعَ جبل ثهلان لأذله بِدَكٍّ أعاليه، وتصديع جوانبه وسائر نواحيه.

ويستوقفنا في بيت لقيط المركب الإضافي «شم الشماريخ» لأن جمال الدين التبريزي قد استخدمه في رائيته عند الحديث عن فرار جند التتار ولجوئهم إلى أعالي الجبال هربًا من شدة بأس الجيش المصري يقول التبريزي:

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ٢/ ٢٩٦.

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٦٨.

(٣) ديوان لقيط ص ١٤.

(٤) ديوان لقيط ص ٤١.

لاذوا بشُمِّ شماريخ الجبال فما ∴ حمتهمُ قللٌ منها ولا مُغَسرُ

ويدعو لقيطٌ قومه إلى التأهب لملاقاة الفرس، وإعداد العدة لمواجهة جحافلهم فيقول:

صونوا جيادكُمُ، واجلوا سيوفكُمُ ∴ وجدِّدوا للقِسِيِّ النَّبل والشَّرعا

ويسترعى انتباهنا أن التبريزي استخدم المركب الفعلي الأول في هذا البيت (صونوا جيادكم) مرتين في رائيته إحداهما بالصيغة نفسها التي وردت عند لقيط، أعني بها صيغة الأمر، وذلك في قوله:

صونوا جيادكم اللاتي بكم لجبت ∴ في بارق الحرب والرمضاءُ تستعر

والتبريزي في هذا البيت يأمر الجيش المنتصر بإكرام الخيول ورعايتها، بعد الجهد المضني الذي تجشَّمته في موقعة مرج الصُّفَّر، وهو سياق يختلف عن السياق الذي ورد فيه هذا المركب الفعلي في بيت لقيط، لأن لقيطًا كان يدعو قومه إلى صيانة الجياد بتفقدها، وإطعامها، وعلاج ما يحتاج منها إلى علاج تأهبًا لخوض المعركة.

والمرة الأخرى التي ورد فيها هذا المركب كان في قول التبريزي مفتخرًا بما أعدّ المصريون للنتريين من عدة

صانوا الجياد، وسنوا كُلَّ ذي شُطُبِ ∴ وجُدِّدت للقِسِيِّ النّبل والوتُر

ويذكّر لقيط قومه بأن الفرس لا تفتر لهم همة في العمل على استئصال شأفة العرب، ويرى أن أحرار فارس في سبيل تحقيق هذا المأرب لا يركنون إلى الدعة، ولا يخلدون إلى الراحة، ولا ينشغلون بما ينشغل به أبناء يعرب من الازدراع والحرث، والعمل على تكثير الأنعام، وادخار الأموال، وفي هذا يقول:

في كلِّ يومٍ يسنون الحراب لكم   لا يهجعون إذا ما غافلٌ هجعا

لا الحرثُ يشغلُهم بل لا يرون لهم   من دون بيضتكم رِيًّا ولا شِبَعا

وأنتم تحرثون الأرضَ عن سفهٍ   في كلِّ مُعْتَمَلٍ تبغون مزدرعا

وتُلْقِحُون حِيالَ الشَّولِ آونةً   وتُنْتِجُون بدارِ القُلعةِ الرُّبَعَا

وينعي التبريزي على قومه هجوعهم، واستنامتهم في الوقت الذي يسهر فيه التريون والصليبيون للمكر بهم فيقول:

أيرقدُ الليل في أمنٍ وفي دعةٍ   ∴   عن كيد قوم لهم في شأنكم سَهَرُ

ويدعوهم إلى عدم الانشغال بزينة الحياة الدنيا، ويرغبهم فيما أعدَّ الله للشهداء في الآخرة فيقول:

ذروا التكاثر فالدنيا لمن زويت   ∴   في جنب ما وعد الرحمن تُحْتَقَرُ

وبعدُ، فلقد كان هذا حديث التناص والدلالة في رائية التبريزي، ولا أستطيع إلا أن أسلم بما قاله الدكتور محمد مفتاح من أن «التناص ظاهرة معقدة تستعصى على الضبط والتفنين»[(١)]. لأنها كما قال «تعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي، وسعة معرفته، وقدرته على الترجيح»[(٢)]، وهي أمور لم تتهيأ لكاتب هذه السطور بعد.

(١) استراتيجية التناص للدكتور محمد مفتاح ص ١٣١.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

الخاتمة

تحدثت فى الصفحات السابقة عن جانبين مهمين من جوانب البحث المتعددة التى يمكن أن تفجرها قصيدة جمال الدين التبريزى الرائية التى نظمها عقب انتصار المصريين على التريين فى موقعة مرج الصُّفَّر عام ٧٠٢هـ.

وأول هذين الجانبين كان يتعلق بالسياقات السياسية والاجتماعية التى حفزت المبدع إلى إنشاء النص، والآخر كان يتعلق بدلالة النص على ملكات مبدعه اللغوية والثقافية، والفنية، ولقد بينت فى المقدمة الأسباب التى دعتنى إلى إيثار هذين الجانبين بالدرس، والمنهج الذى ارتضيته فى درسهما، وحسبى أن أشير – هنا– فى الخاتمة إلى أهم ما توصلت إليه من نتائج:-

أولاً: لعلى أكون قد أمطت اللثام عن شخصية شاعر من كبار شعراء القرن الثامن الهجرى الذين سقطت دواينهم من يد الزمن، وهو جمال الدين التبريزى وذلك بما ذكرته فى غضون البحث عن مولده، وثقافته، وبلاغته، ولسنه، وتدرجه فى وظائف الخطابة، والقضاء، والتدريس، ومؤلفاته، وآراء العلماء والأدباء فيها، ووفاته...

ثانياً: بينت كيف واكب الشعر فى عصر الدولة المملوكية الأولى – ممثلاً فى رائية التبريزى– الأحداث السياسية والعسكرية المهمة فى ذلك الزمان، وكيف انفعل بها، وتفاعل معها، وعبَّر عنها واصفًا أحوال الأمة العربية فى أتراحها وأفراحها.

ثالثاً: استطاع البحث أن يجلى الدور المحورى الذى قامت به مصر بغية درء الأخطار التى أحدقت بالعالمين العربي والإسلامى فى القرن الثامن الهجرى، ولقد تمثل هذا الدور فى دفاع المصريين عن أرض العروبة والإسلام، ورد عادية

التترين والصليبيين الذين قدموا إليها من المشرق، والمغرب تحدوهم الرغبة فى انتهاب ثرواتها، وإذلال أهلها.

رابعاً: أبان البحث أن جمال الدين التبريزى كثيرًا ما يقع فى الضرائر الشعرية بنوعيها النحوى والصرفى، وأن عددًا غير قليل من الضرائر التى ارتكبها لم يكن هناك ما يدعو موسيقيًّا إلى الوقوع فيها.

خامسًا: استطاع البحث أن يحدد مفهوم الانسجام عند نقاد القرن الثامن الهجرى وبلاغييه، واستطاع فى ضوء هذا التحديد أن يتبين مدى إصابة ابن حجر العسقلانى فى وصفه رائية التبريزى بالانسجام.

سادسًا: لاحظ البحث أن ثقافة الشاعر الدينية قد طغت بشكل مباشر على البنى التركيبية للنص الشعرى، وأبان كيف كان القرآن الكريم بصفة خاصة النص المسيطر أو الموجه للروح الشعرية فى الرائية.

سابعًا: لاحظ الباحث أن الشاعر قد تناص مع عددٍ من النصوص الشعرية لفحول شعراء العربية الكبار من مثل لقيط بن يعمر الإيادي الشاعر الجاهلي المشهور، والفرزدق والأخطل من شعراء بنى أمية، وأبى تمام شاعر الصنعة في العصر العباسىّ الأول.

ثامنًا: يرى الباحث أن كثرة مواضع التناص مع القرآن الكريم، والشعر العربى القديم تدل على ظاهرة الانجذاب إلى التراث التى كانت شائعة فى العصر المملوكى الأول بغية تأكيد الهوية العربية والإسلامية للمجتمع.

كانت هذه – فيما أظن – أهم نتائج البحث، والحمد لله بدءًا ومختتمًا، وعليه سبحانه – قصد السبيل.

مصادر البحث ومراجعه

١) الأخطل شاعر بنى أمية، للدكتور سيد غازى، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.

٢) الأغانى، لأبى الفرج الأصفهانى، الجزء الثامن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

٣) أعيان العصر، وأعوان النصر، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق الدكتور على أبو زيد وزملائه، قدَّم له مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٤) أوزان الشعر العربى وقوافيه، دراسة وتحليل، للدكتور إبراهيم محمد أحمد الإدكاوى، مركز معالجة الوثائق، شبين الكوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفى، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الجزء الأول، القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٦) البيان والتبين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، العدد ٨٥، القاهرة ٢٠٠٣م.

٧) تحليل الخطاب الشعرى: استراتيجية التناص، للدكتور محمد مفتاح، المركز الثقافى العربى، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

٨) تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، تحقيق محمد محمد أمين، ومراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٩) التحفة المسكية فى الدولة التركية، من كتاب الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر المعروف بابن دقماق، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمرى، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠) التناص وإشاريات العمل الأدبى، لصبرى حافظ، بحث منشور بمجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤م.

١١) التناصيَّة، لليون سومفيل، ترجمة وائل بركات، مجلة علامات، الجزء الواحد والعشرون، المجلد السادس، سبتمبر ١٩٩٦م.

١٢) جامع البيان فى تأويل القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، طبعة دار الغد العربى، القاهرة، د.ت.

١٣) الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٤) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، لشهاب الدين أبى الثناء محمود الحلبى، طبعة هندية، مصر، ١٣١٥هـ.

١٥) الدارس فى تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمى الدمشقى، عنى بنشره وتحقيقه جعفر الحسنى عضو المجمع العلمى العربى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٦) دراسات فى أدب ونصوص العصر الأموى، للدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

١٧) خزانة الأدب، وغاية الأرب، لتقى الدين أبى بكر بن حجة الحموى، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

١٨) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

١٩) ديوان الحافظ ابن حجر العسقلانى، دراسة وتحقيق د. صبحى رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٢٠) ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستانى، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢١) ديوان لقيط بن يعمر، حققه وقدَّم له الدكتور عبد المعيد خان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٨هـ -١٩٨٧م.

٢٢) ذم الخطأ فى الشعر، لابن فارس اللغوى، حققه وقدّم له وعلّق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجى بمصر ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٢٣) الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، لعلاء الدين علي بن عبد الظاهر المتوفي ٧١٧هـ تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٤) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، للدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم بدمشق، الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٢٥) شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع، لصفىّ الدين الحِلِّى، تحقيق الدكتور نسيب نشاوى، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٣م.

٢٦) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، لأبى الحسين أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٧) الضرورة الشعرية فى النحو العربى، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٨) العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه، وضبطه، وصححه، وعنون موضوعاته أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري، ووضع فهارسه محمد فؤاد عبد الباقي ومحمد رشاد عبد المطلب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٤م.

٢٩) الغزو المغولى أحداث وأشعار، لمأمون فريزجرار، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٣٠) فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، يناير ١٩٧٤م.

٣١) فى التعالى النصى والمتعاليات النصية، لمحمد الهادى المطوى، مقال بمجلة المجلة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، السنة السادسة عشرة، العدد ٣٢، مارس ١٩٩٧م.

٣٢) القافية تاج الإيقاع الشعرى، للدكتور أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣م.

٣٣) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى الشيرازى، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٣٤) **القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات**، للدكتور عبد الله التطاوى، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٨٨م.

٣٥) **الكامل في اللغة والأدب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد ت ٢٨٥ هـ، مؤسسة المعارف ببيروت، دون تاريخ.

٣٦) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**، للإمام محمود بن عمر الزمخشرى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٤هـ.

٣٧) **كنز الدرر وجامع الغرر**، لأبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدَّوادارىّ، الجزء التاسع، تحقيق هانس روبرت رويمر، سلسلة مصادر تأريخ مصر الإسلامية، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى للآثار بالقاهرة.

٣٨) **لسان العرب**، لابن منظور، تحقيق عبد الله على الكبير وزملائه، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٣٩) **مآثر الإنافة فى معالم الخلافة**، لأحمد بن عبد الله القلقشندى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.

٤٠) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ت ٧٤٩ هـ، الجزء السادس عشر، بتحقيق الدكتور محمد إبراهيم حوّر، منشورات المجمع الثقافي بأبي ظبي.

٤١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقى، طبعة دار الشعب، القاهرة، د.ت.

٤٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازى، دار الغد العربى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤٣) المقتضب، صنعه أبى العباس محمد بن يزيد المبرِّد، تحقيق الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٤٤) الممنوع من الصرف وغربة المسار، ضمن بحوث كتاب اللغة والكلام: أبحاث فى التداخل والتقريب، للدكتور أحمد كشك، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٥م.

٤٥) موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور والفنون، للدكتور عبد العزيز نبوى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ- ١٩٣٩م.

٤٧) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، لديفيد بُشبندر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثانى، العدد ٢٠٦، القاهرة ١٩٩٦م.

٤٨) نقد الشعر، لأبى الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٤٩) **نهاية الأرب فى فنون الأدب**، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، الجزء الثانى والثلاثون، تحقيق محمد فهيم علوى شلتوت، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٥٠) **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، لإسماعيل باشا البغدادى، وهو المجلد الخامس من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٥١) **الوافى بالوفيات**، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، الجزء التاسع عشر، سلسلة النشرات الإسلامية، طبع على نفقة الجمعية الألمانية للبحث العلمى، دار صادر، بيروت.

٤٣) المقتضب صنعه أبي العباس محمد بن يزيد المبرد [illegible]

٤٤) الممنوع من الصرف [illegible]

٤٥) موسوعة [illegible] الشعر عبر العصور [illegible]
نبوي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٤٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ [illegible]

٤٧) نظرية الأدب المعاصر [illegible] ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة [illegible] الألف كتاب الثاني، العدد ٢٠٦، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤٨) [illegible] تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

المحتوى

كتب أخرى للمؤلف في أدب العصر المملوكي الأول

١ - الصفدي وشرحه على لامية العجم: دراسة تحليلية، الطبعة الخامسة، مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٧م.

وقد كتب على الورقة الأولى منه خطأ الطبعة الأولى لذا لزم التنويه هنا حيث لم نستطيع إصلاحها هناك.

٢ - شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي المتوفي ٧٢٥هـ كاتبًا رؤية أدبية ونقدية، مطبعة الشاعر بطنطا، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

٣ - تقي الدين السَّروجي وما تبقى من شعره وموشحاته جمع وتحقيق ودراسة، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق في عددها الحادي والأربعين الصادر في ربيع ٢٠٠٧م، وطبع في نشرة مستقلة بمكتبة الآداب ٢٠١١م.